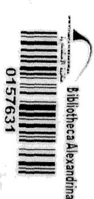
بينتا ستيلمارك

مقارنة بين

سانت جوست
و
معمر القذافي

"دولة المستقبل"



الدار العالمية للطباعة والنشر

سينتا ستيلمارك



الدار العالمية للطباعة والنشر

الطبعة الاولى
1990 م

الدار العالمية للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان

تصورات حول دولة المستقبل لسانت جوست والنظرية العالمية الثالثة للثائر معمر القذافي

سنتا ستيلمارك

الحالم والمؤسس

مقـــدمـــة

بقلم «دكتور هانس كوخلر»

مضى قرنان من الزمن منذ اندلاع الثورة الفرنسية ولم يَبْقَ إلاَّ القليل من الأفكار الأساسية الجيدة التي ميزت هذه الثورة على الحكم الاستبدادي.

وبعد حقبة من الزمن والقوانين التي كانت تبدو للكثيرين غير قابلة للدحض انقلبت الثورة سريعاً إلى العكس، فظهرت طبقات جديدة لا تختلف كثيراً عن طبقات النظام الملكي رغم تقمصها ثوب الجمهورية، والنظام النيابي الحالي لممارسة السلطة في كافة الأنظمة السياسية الغربية والمرشح للتقليد في العالم الثالث لا يجد الشرعية لا من الناحية العملية ولا من الناحية الايديولوجية حسب مفهوم الثورة الفرنسية التي سيقت مضامينها من أفكار روسو في العقد الاجتماعي مهما كانت المحاولات لتقديم هذه الصورة في خطب الأعياد.

والثورة الليبية التي نحتفل اليوم بعيدها العشرين قد أطاحت في عصرنا بنظام ملكي وطبقي يشبه في الأساس الوضع الذي كان سائداً زمن الثورة الفرنسية وكلتا المناسبتين تعطينا فرصة للمقارنة بين تصورات الثورة الفرنسية في الديمقراطية الأساسية وبين الديمقراطية المباشرة كما وردت في الكتاب الأخضر لمعمر القذافي.

ويمكن أن يتساءل الإنسان انه إذا لم يكن النظام الجماهيري المطبق في ليبيا القذافي لا يقدم لنا الصورة الحقيقية لروح الثورة في عام 1789م مثل الأنظمة

الاجتماعية الحاضرة التي تستند هي الأخرى إليها فلا أقل من أن يستقي الشرعية منها والعرض الموضوعي ـ البيوجرافي من سنتنا ستيلمارك ومقارنتهـا بين ثـورتين اجتماعيتين وبين تصورين :

بين سانت جوست وبين القذافي واستنباطها بنية مشتركة تعـطي المهتمين بالجدل العلمي التجريدي للمفاهيم الايديولوجية مدخلاً لعالم الأفكار غير المألوفة في الثورة والديمقراطية، وفي الوقت الحاضر يبدو أن حركة الخضر هي التي فهمت أن الـديمقراطيـة المباشرة «لا صلة لهـا بالإرهـاب ولا بالاستبـداد لا كما تـريـد الايديولوجية التقليدية منا أن نعتقده»، فالديمقراطية في شكلها الحقيقي هي تحرير الفرد من العسف الاجتماعي الغير المنظور في الأعم يعني تحريره من وضع الرعية إلى مستوى المواطن كشرط لتمكينه من عملية اتخاذ القرار.

آمل أن يؤدي هذا العرض إضافة إلى الاهتمام بـالسيرة التـاريخية إلى التفكير في الدوافع وفي فهم نفسية الشخصية الثورية التي لم تلق مثاليتها في الغالب التفهم من مدافعي العقائدية المسيطرة حتى لو كانت أكثر إخلاصاً من المتهكمين الذين يحاولون إعطاء الشرعية لأنظمة الحكم السائدة متأخراً ـ بدلاً من اسقاطها.

الإنسان يعلق مناط أمله على المستقبل

الإنسان يعلق مناط أمله على المستقبل

توجد صورة زيتية معلقة على جدار غرفتي الصغيرة التي اكتب واطالع فيها.. صورة لشخص.. الرسام لم يستطع الحصول على صورة حية لهذا الشخص لهذا وجب عليه رسم صورته بناء على ما وجده في نماذج الكتب.. لا توجد صورة من تلك الفترة ولا شهود عيان يستطيعون تأكيد حقيقة الصورة.. لكن الفنان.. اذا كان هو حقيقة.. رسم الصورة معتمداً على خياله وهذا ما يجعله محل ثقة.. الصورة هي لرجل شاب في لباس القرن الثامن عشر.. يلبس بدلة بنية اللون ذات ياقة عالية تتدلى عليها خصلات شعره الذهبى الغامق ويلبس قميصاً وشالاً معقوداً.. وجهه يظهر قسمات رقيقة وعيناه عميقتا الزرقة تنظران للمراقب بجد ونفاذ.

ومن يثق بشخصية هذا الرجل الشاب.. الذى وصفته الأسطورة «برئيس ملائكة الثورة» يقرأ في هذه النظرة اتهام صامت.. أسف.. ربما التماساً أيضاً.

كان قد شعر بالوقت القصير الذى كان متاحاً له، عندما كتب بلغة عصره الرهيبة هذه الكلمات المرة الإنسان المضطر إلى عزل نفسه عن العالم وعن نفسه أيضاً.... يلقي بالمرس في المستقبل ويضغط الاجيال القادمة على قلبه، هذه التي لا تتحمل أي ذنب في الآثام الحالية....

وتوجد على احد رفوف الكتب صورة ملونة في اطار جلدى بسيط بحجم بطاقة بريدية رأس رجل.. بشرته خفيفة السمار.. شعره أسود.. حاد

القسمات.. عيناه الغامقتان تحت حاجبيه الكثيفان المنقبضان.. لهما نظرة قوية. حول هوية هذا الوجه الملفت للنظر، لا يحتاج الزائر أن يسأل.. هذا الوجه معروف في الجهاز المرئي.

الاختلاف الظاهرى بين الصورتين واضح لدرجة ان الذى لا علاقة له بهذا الموضوع والفاحص لمحتويات الاماكن الغريبة، لا يعتقد بوجود ترابط بين الشخصين.. ورغم ذلك فأن قرنين من الزمان قد نسجا خيوطاً سرية حول رجلين من قارتين، إن الرأس المرفوع الواثق الذي يعلو القميص العسكرى ذو اللون الأسمر الفاتح يقبل التحدي، وبذلك لم يفقد ذلك الالتماس اليائس للأجيال القادمة تأثيره خلال التاريخ العالمي.

أفكار لها قوة اضاءة ساطعة تتجسم في هذا الرأس الداكن.. تأتي بالوضوح لاسئلة غير محلولة، وهنا أيضاً يعاني رجل من آثام الحاضر، لكنه لا ييأس.. لا يلجأ إلى العزلة المرة.. وهو لم يخلق للسكوت اليأس.. صوته المنبه (المنذر) يحمل إلى القارات ويده تلتقط المرس الذى رماه في المستقبل في ذلك الوقت صاحب مبادىء، ومثل خائب الظن، حيث كانت الإنسانية لا تزال غير ناضجة لتقبل أفكاره، هذه اليد التي تقاد بواسطة ذكاء عال صنعت سلسة صعبة، متداخلة الاجزاء بقوة تبحث للمرس عن أرض آمنة.

في 28 يوليو (أو- حسب تقويم الثورة في 10 من شهر ترمدور) للسنة الثانية للثورة الفرنسية، اعدم بالمقصلة واحد من أهم نواب الاجتماع الوطنى (الجمعية الوطنية) انتوني د. سانت جوست.

وذهب كضحية لاعدائه السياسين، وكان بعد أسابيع قليلة من موته سيبلغ سن الـ 27 سنة من العمر.

في الفاتح من سبتمبر 1969 أو حسب التقويم الإسلامى في 19 جمادى الآخر 1389 اطاح ضابط غير معروف حتي ذلك الوقت، اسمه معمر القذافي على رأس زملائه بالملكية الليبية وأسس بدلاً عنها الجمهورية الشعبية الاشتراكية العربية **وقبل ذلك بأسابيع كان قد أكمل الـ 27 عاماً من العمر.**

تاريخان يجب حفظهما، شظيتان في فسيفساء التاريخ العالمي، تختلفان

في الشكل واللون.. لكن أيضاً وقبل كل شيء.. انسانان ومصيران.. واحد منهما مات بشكل فظيع على أرضية ساحة الثورة في باريس المسمى اليوم (ساحة النصر) لكن العالم لا يزال ينتظر الكثير من العقيد القذافي خاصة العالم الثالث غير المستقر.

قال القذافي عن نفسه: أنا ثورى أكثر من سياسي، وجاء في احد سير سانت جوست أنه كانت شخصيته أكثر ثورية من افعاله..

لو كان التلفزيون موجوداً في 1789 لربما كان كل من دانتون (Danton) ومارات (Marat) الشخصيتان المسيطرتان على الشاشة حيث كانا الرجلين الأعلى صوتاً في الشارع، وكان الشعب يهلل لظهورهما الرائع.

إن سانت جوست لم يكن احد الملهمين للثورة، وفي البداية كان مبتعداً بنفسه عن «حكم الرعب» منتظراً.. وقد لفتت الانظار إلى الشاب الانيق، من المقاطعة الشمالية (Aisne) (ايسنه) الذي حاول وضع خطواته الأولى منذ فترة قصيرة على أرضية باريس الساخنة عندما قدم خطاب الاتهام الساحق ضد لويس السادس عشر. وهنا فاجأ هو الجمعية الوطنية بشجاعته.. حيث قال ما كان أغلب زملائه يفكرون ويرغبون قوله.. دخل التاريخ بكلمات، استطاعت البقاء والحياة، وبالرغم من أنه لم يترك في فرنسا رمزاً ظاهراً لحياته السياسية اللامعة..

دوره قصير في الثورة لعبه هو في قمتها، الثورة بدأت بدونه وانهيت بدونه.

لكن معمر القذافي لم يلق به في الثورة الليبية، بل هو الذى صنعها، وكانت الثورة.. ثورة بيضاء بدون استخدام القوة.. كان الملك ادريس الكبير في السن خارج البلد عندما استلم الضباط الأحرار السلطة في ليبيا.

ولم يضطر الملك أن يعاني من مثل مصير الملك الفرنسي ولم ترسل إليه جماعة لقتله، وعاش خمس عشرة سنة بعد قيام الثورة في المنفى.

أعلن سانت جوست من يعمل نصف ثورة، يحفر قبره بنفسه، وكان هدفه افهام الفرنسيين معنى الإجراءات القاسية.

العقيد القذافي فهم أيضاً طبيعة «الظروف القاهرة» وفهم بأن شعباً غير ناضج لا يمكن انتزاعه بالضعف ورقة المشاعر الكاذبة من صبره الأعمى.

لكن الأعمال الوحشية للعناصر الغامضة، التي يطلق عليها اثناء قيام الثورة «خمير الشعب» أو «ضباع الثورة»، والتي تقوم غالباً تحت غطاء البلبلة العامة، بحب الانتقام الشخصي، ويمكنها فقط القيام بمثل هذه التصرفات عندما تفقد الثورة سيطرتها، أو عندما تفشل القيادة أو عندما لا توجد مطلقاً.

وجب على الثورة الفرنسية لقرون طويلة تحمل وزر الأعمال الوحشية غير المنطقية جنباً إلى جنب مع أهدافها المثالية وانجازاتها الاجتماعية، لأنه في بعض المرات كان لا يستطيع كادر من الكوادر غير المؤهلة ايقاف مثل هذه التصرفات.

حتى روبسبير لم يستطع ايقاف مثل هذه الأعمال التي أدت إلى قتل الارستقراطين في السجون، وذلك خوفاً من دخول وقدوم حلفائهم الأجانب، وكبار من بين هؤلاء كبار السن والأطفال، وأيضاً غير المدانين.

وجب على النائب المشهور (Arras) لاحساسه بالضعف الوقوف أمام شباكه لمشاهدة أولئك الذين عينوا انفسهم «منفذين للأحكام» والذين رفعوا الرؤوس الدامية على القضبان عبر الشوارع.

أما ثورة الفاتح بقيادة العقيد معمر القذافي فإنها قامت بأنتظام كامل وإن قسوتها نالت بصورة هادفة من أولئك الاشخاص الذين اثروا بطرق غير شرعية، أو أولئك الذين تحوم حولهم الشبهة لتحطيم الجمهورية الشعبية الفتية مستخدمين بذلك الوسائل ـ حتى التعاون مع القوى الاجنبية.

صاح «سانت جوست» ذات يوم (.. أيها المواطنون عليكم اقامة الجمهورية..) واضاف قائلاً (.. حتى يصبح بذلك تحطيم الذين وقفوا أمامها قانوناً شرعياً).

لكن سانت جوست لم يكن يملك لوحده السلطة في الدولة الجديدة، وأنه لم يعش طويلاً لكي يرسخ قواعد هذه الجمهورية، والتي حقا لم تدم إلا

فترة قصيرة، كان هو معينا في الجمهورية الوطنية، التي تتألف من أعضاء من مختلف الطبقات والتيارات الفكرية من العهد الملكي.

حاول سانت جوست في الجمعية الوطنية ومنذ اليوم الأول شق طريقه في وسط صراع سياسي وأفكار وأهداف متضاربة، وفي النهاية خسر معركته أمام مجموعة الأكثرية التي لم تكن ذاتها موحدة الإرادة.

أما معمر القذافي فعلى العكس فهو يملك إلى جانب غريزته الثورية التي صنعت منه قائداً، الامكانيات الطيبة، التي استطاع بها استخدام هذه القدرة الرائعة في اللحظة المناسبة. . الشعب الليبي المغلوب على أمره في بلاده، كان ينتظر صوتاً يتحدث باسم الجميع وطاقة رجل يعمل من أجل الجميع.

شخصية مثل القذافي فقط، مستقلة عن الاحزاب والطبقات كانت قادرة على اعطاء الجماهير الثقة بالنفس وهذه الجماهير التي كانت تعاني بشدة من اصحاب الامتيازات والطبقة المسيطرة التي تتعاون مع الحكام الاجانب وهو الذي كان في استطاعته اشعال الثورة.

الشاب معمر أسس (اسمه باللغة الالمانية ـ البناء) من لا شيء وبين يوم وآخر الدولة الليبية الجديدة. . . ولم تكن نصف «ثورة».

كلاهما أبناء الجنديان ـ الفرنسي في الشمال الكثير الضباب، والشاب البدوي في سرت الكبير. . والد القذافي حارب ضد الطليان، الذين غزوا بلاده وجُرح اثناء القتال. . ، اما السيد سانت جوست فقد ترقى في الجيش من درجة إلى درجة دون أن يشترك في الحرب، وعندما ترك الجيش كان في رتبة نقيب ليعيش في منطقة في الشمال الفرنسي في بيت صغير، قضى أيامه في القراءة والعمل في الحديقة، وكان عمره اكثر من 50 سنة، عندما تزوج من بنت أحد مسجلى العقود، البالغة 30 سنة من العمر، والتي كانت تعتبر بمقاييس ذلك الزمن «بنت كبيرة العمر ذابلة الشباب» ومن هذين الوالدين ولد الولد انتونى، ولم يفهم والديه نضجه المبكر ولم يتوقعا اضطرابه العقلى.

عندما ولد معمر القذافي، كان عمر والده 60 سنه، أي أكبر سناً من والد

سانت جوست يوم ولادة انتونى . . كان والد القذافي قوي البنية والذي شارك في الحروب ضد القوى الاجنبية الغازية لبلاده.

ولد معمر القذافي في سنة المصير 1942 عندما بدأ اتجاه الحرب التي كان يقودها المارشال رومل على الأرض الليبية والتي فاز في بداياتها، والتي اطلق عليها اسم «عمليات وردة عباد الشمس» ينعكس لصالح الحلفاء أصبح عمر والد القائد اكثر من 100 سنة وكان ابنه معمر يرعاه بعناية وحب واحترام حتى آخر يوم في حياته.

أما والدته فكانت امرأة عربية شجاعة ومثابرة وكانت تعمل بجد من الصباح حتى المساء إلى جانب زوجها الكبير السن والذى كان يتجول مع الجمال التي تعود ملكيتها إلى غيره.

إن حياة الصحراء الصعبة لم تترك لها فرصة الحياة الخاصة سويعات راحة **وزخارف حياة النساء، وقد ضحت بشبابها وجمالها من أجل حياة العائلة وهذا الابن الصغير الذى ولدته أمه في خيمة بائسة بقى بالنسبة لأمه كأحب ولد لها.**

السيدة سانت جوست لم تعرف الفقر الحقيقي لكنها اضطرت إلى بعض القيود المالية، لكى تستطيع إرسال ولدها إلى مدرسة داخلية تتناسب مع مستواهم الاجتماعي. الفكر البرجوازى في ذلك الوقت كانت له مشاكله ممتلكات الزوجة، لكلا البنتين، وفيما اذا أمكن الحصول على الزوج المناسب في مثل هذه المدينة الصغيرة، القرية حيث ان العائلات «الجيدة» معروفة ويمكن عدها على عدد الأصابع.

الأبن الوحيد انتوني كان ذكياً وسي النظام، وكانت أعماله وافعاله في عمر المراهقة تخلق المشاكل لأمه.

وبعد أن اندمج بكل حماس بالثورة، خسرته عائلته نهائياً لم يبق في قريته النائمة، بينما الناس تهاجم الباستيل في باريس والجماهير تطالب بحريتها بواسطة الخطابات والأغاني الوطنية.

كان على الشاب انتونى الانتظار بضعة سنوات حتى يبلغ السن التي تخوله أن يبعث كنائب عن مسقط رأسه في الجمعية العمومية.

كانت فرنسا كلها تغلي وكانت شهرة الجنرال (لا فايت) قد وصلت إلى كل انحاء البلاد، هذا الفرنسي الشجاع الذي عبر البحر لكي يحارب على أرض اجنبية من أجل الحرية والنظام الجديد، وأصبح كذلك مثالا للشباب الذكور في قريته بلارانكور. .

كان الشاب سانت جوست أكثر شباب قريته تحمساً بشأن معركة يورك تاون. . لم يكن هناك من كان من شباب القرية يملك حماساً مثل سانت جوست. .

الشجاعة وخسارة انجلترا، وكان هذا الشاب قد بلغ الـ 21 سنه من العمر عندما أصبح واشنطن أول رئيس للدولة الجديدة، الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية.

من أين اتي لهذا الشباب وهو من عائلة محافظة مثل هذا الاندفاع الشورى القوي الذى طغى على كل حياته؟ هذا الاندفاع لم يرثه عن والده، الذى شاخ وهو يعمل كضابط في خدمة الملك، وربما انه لم يكن ليستطيع فهم العصر الجديد، في حالة عدم وفاته.

إنه توفى عندما بلغ انتونى 10 سنوات من العمر، ورأت أمه الارملة في افعال انتونى بداية سلسلة من المغامرات التي كانت اخطر بكثير من تلك الحماقات التي كان يفعلها اثناء الدراسة. . سيدة البيت ذات الفكر الضيق الذى لا يتعدى الجدران الأربعة، لم يكن في وسعها فهم المتغيرات التي تجري في الخارج. . .

كلا الأبوان لم يشاركا في ما كان يحمله هذا الشاب من شعلة داخلية، هذه الشعلة نمت في الشرارات المتوهجة الخالدة التي تأتي في زمن ما ومكان ما من السماء إلى أحد البشر ويقوم هو بحملها كما هو الحال مع النار الاولمبية. .

وبعد أن حصل سانت جوست في النهاية على هدفه المرحلي عندما عين كممثل عن مسقط رأسه في الجمعية العمومية بباريس، بدأت هذه الشعلة فجأة تحرق ذاته الداخلية، الشاب الهائج القادم من قريته، والجالس على مصطبة في أعلى صفوف قاعة الجمعية العمومية حيث يجلس ممثلو الحزب المتطرف

«حزب الجيل» أصبح رجلٌ شاباً جدياً. . ينظر بعينيه الباردتين نظرة نقدية على ما يجري حوله. . لم يطلب الكلمة بعد، ترك الاخرين يتحدثون وفهم ما شاهده وما سمعه، وحكم على كل ذلك حكماً تجاوز سنه بكثير.

لكنه كان يرغب في أن يصبح شيئاً أكثر من مجرد نائب أحد ثوريى المناسبات الذين يخطبون بصوت عال في الاماكن العامة، لكى يثيروا حماس الشعب الكسول، أو صحفى جرائد يكتب تهديدات مبهرجة ضد هذه الجماعة أو تلك. سانت جوست وضع مهمة لنفسه، مهمة مستقبلية تهدف إلى تغيير العالم.

كان سانت جوست يسكن في غرفة متواضعة في فندق «الولايات المتحدة». . هل اختار سانت جوست عمداً هذا الرمز لسكنه الذى كان في ذلك الوقت يشير إلى الحرية الديمقراطية؟. . . أو كان ذلك مجرد صدفه. .

في هذه الغرفة كان يجلس غالباً بعد عناء وتعب جلسات الجمعية العمومية وفي نادى اليعاقبة «المتطرفين» على ضوء مصباح نفطي خافت إلى ساعات متأخرة من الليل لصياغة وكتابة أفكاره.

وكان المفروض أن يصبح كاتباً ذو أهمية.

خطة لنظام دولة يشرح فيها علاقات المواطن بالدولة وقوانينها وكذلك علاقات المواطنين بعضهم ببعض. . أي صياغة أساس جديد لهذه العلاقات.

وكان الشاب الثوري الاجتماعي يرغب بذلك في تربية الشعب بالأخوة الحقيقية واخلاق داخلية جديدة. . التي كما كان يعتقد. . تقرب اخيراً «العصر الذهبي».

لكنه لم يستطع انهاء اعماله، اجزاء من كتاباته وأوراقه ودفاتر مذكراته وجدت بعد موته ونشرت بعد ذلك بوقت طويل وكانت تحمل عنوان «مؤسسات الجمهورية».

معمر القذافي كان أكثر شباباً من ذلك الشخص غير الصبور الذي كان يريد تغيير العالم، عندما شعر بالمهمة التاريخية، بضرورة خدمة بلده والعروبة

بصورة خاصة وممتازة، وعندما كان عمره 17 سنه، طالباً قرر أن يحقق لبلده ليبيا التي كانت تتمتع بصورة شكلية «كدولة ذات سيادة». . الاستقلال الحقيقي. . . وتشكيل حكومة ليست من الشعب فقط، لكنها الشعب نفسه. . والشعب كمنفذ لإرادة موحدة عليه تحمل المسئولية وبذلك يجد الشعب ذاته في الدولة.

إن سكن القذافي ربما كان أكثر تواضعاً «فقراً» من الغرفة الصغيرةفي الفندق الباريسي «الولايات المتحدة».

قضى معمر القذافي دراسته الثانوية، وبعد ذلك دراسته في الكلية العسكرية في بنغازي، وكان يقضي وقته الضيق الخاص في دراسة التاريخ والسياسة، في نفس الوقت كانت عيناه مفتوحتان على كل الأحوال السيئة السائدة في العالم وفي بلده. . الفقر المادى والفكرى لجزء كبير من الشعب، الفساد المنتشر في اوساط رجال المال الذين لا ضمير لهم، الجماعات الاقتصادية الاجنبية كانت تتحكم في التجارة وكانت تثرى على حساب ثروات الشعب الليبي. . القواعد العسكرية الامريكية والبريطانية المتواجدة في المناطق الساحلية، والتي في حالة الضرورة تستخدم لحماية مصالح الدولتين أو حلفائها على حساب الشعب الليبي.

وعندما نضج الوقت تصرف معمر القذافي، ليس كثورى متهور يهجم مع مجموعة من اعوانه على مؤسسة السلطة بل بصفته ضابطا حكيما بعيد النظر. . وكمنظم. . ولقد تم تحت قيادته قبل قيام الثورة بناء خلايا مؤيدة له في جميع الحاميات العسكرية والمراكز الإدارية، والتي حضرت بشكل سليم ومنظم للثورة الكبيرة.

وفي صباح الفاتح من سبتمبر 1969م اعلنت أجهزة الإعلام بأن المملكة الليبية تحولت إلى الجمهورية العربية الليبية تلقي العالم الخبر في البداية بدون انفعال خاص وبقى ينتظر توارد الاحداث. . ما الذي كان معروفاً عن ليبيا هذه؟. . . دولة صحراوية مجرد انها تملك ثروة نفطية وأهمية اقتصادية. . دولة في افريقيا، هكذا قيل بشكل عام، في هذه القارة يسقط الحكام بشكل عام، أو يسقط دكتاتور عسكرى بواسطة خصومه المتعطشين للسلطة، وهذا الرجل

الجديد معمر القذافي من هو، بالتأكيد هـو واحد من الضبـاط الانقلابين من مجموعة غير راضية نقلته الاحداث فجأة إلى السطح، وبعد حكم قصير الامد سوف يحاكم أمام القضاء العسكرى.

لكن العالم كان عليه أن يتعلم نتيجة حكمه المتسرع وكان عليه ان يعرف بأن معمر القذافي هذا ليس مغامر سياسي، يمكن بسهولة اعادته مرة أخرى إلى تجت، لأنه كان رغم شبابه ناضجاً ايديولـوجياً يعـرف قيمة المسئولية وجـاء بخطة جاهزة لإعادة مجرى الحياة في ليبيا وتحويلها إلى دولة ديمقراطية شعبية، يجد فيها كل مواطن مخلص مكاناً وعملاً، ولم يرق القذافي دماً غير ضرورياً ولم يستخدم العنف الجنوني أو الأعمال الانتقامية أى لا يستخدم لما يوسخ سمعة ثورته، وكان على الثورة تحقيق ذاتها بواسطة العمل الجاد والبناء المنظم، ولقد قدم العقيد شخصه ومعرفته وقدرته لهذا الهدف وطالب بشكل غير محدود حتى رفاقه العمل على تنفيذ هذا الهدف الـوطني وطالب كـل الرجـال والنساء في الجمهورية الفتية العمل من أجل ذلك.

إن هذه الكلمات التي قالها سانت جوست (الثورين يستطيعون النوم في القبور فقط) يمكنها أيضاً ان تصدر عن القذافي لأن في ليبيا 1969 ليس هناك وقت للنوم لكن المرء هنا لم يفكر في القبر لأن هذه السنة كانت بمثابة ميلاد حياة جديدة في ليبيا. . العالم تعجب بشأن شخصية العقيد الحركية الذى استمر في السلطة بينما اختفت القواعد العسكرية الاجنبية وتحول الاستغراب حسب وجهـة نظر المـراقبين إلى الاعجاب للرخـاء العـام المتـزايـد تحت السيطرة الاقتصادية الشـديدة بعـد القضاء على النفـوذ المعادى للشعب أو فـزع بشأن الاستعداد الحربي المتزايد لشعب صغير العدد لكنه مستعد للدفاع عن دولته الوطنية الحديثة، لكن العقيد القذافي لا يقف عند نجاحاته الظاهريـة. عنده هدف آخر أكبر، وكل ما استطاع تحقيقه لبلده يرغب هو في شكل مماثل تقديمه لصالح الشعوب الأخرى.

حتى عندما كان شاباً يافعاً طالباً بنى في فكره نموذج لدولة، تكون مكاناً لكل مواطن يحق له المشاركة المتساوية، في كل القرارات السياسية والتقدم الاقتصادي والاشتراكية، طريق بين الـرأسماليـة والماركسيـة، بدون استعبـاد

الإنسان كما في النظامين، هذا ما كان يخطر في بال الايديولوجي الشاب.

حلم دولة الطوباوية من افلاطون حتى توماس مورس (الدنيا المثالية ـ المدينة الفاضلة) من سانت جوست حتى القذافي.. منذ وجد المفكرون الذين يرون في النسياسة أكثر من مطالب الحاضر، أو مصالح الطبقات والاحزاب، يبحث العقل عن امكانية تحقيق هذا الحلم. لكن ربما لم يملك المفكرون والحاكمون حتى الآن الشجاعة لمثل هذه المخاطرة الانسانية الكبيرة.

في خيمته البدوية التي تعطيه دائماً ملجأً من مشاكل الدولة المهلكة والتي ليس من السهل حلها، يحلم العقيد القذافي على طريقته بهذا الحلم القديم الذي يهز الأرض. هنا وتحت سقف الخيمة، مصحوباً بعدد قليل من معاونيه المخلصين، أو باتصال قريب مع عائلته، يستطيع التأمل العميق، مثلما فعل دائماً حكماء القبائل العربية. وهنا فان الله أيضاً أكثر قرباً إلى القذافي المؤمن من أي مكان اخر.

وهنا حيث يجد شخصيته الذاتية ـ فهو يختلف عن العقيد القذافي التي تحاول ان تقدمه للعالم اجهزة الإعلام ـ هنا وفي هذا المكان نشأت نظريته العالمية الثالثة «الكتاب الاخضر».

لا تتحقق السلطة بدون اتهام

لا تتحقق السلطة بدون اتهام

لا يمكن الحكم ببراءة

هذه الجملة قالها النائب الشاب سانت جوست الذي لم يكن معروفاً حتى لحظة تلفظه بمثل هذه المقولة جعلته مشهوراً بين ليلة وضحاها وبالرغم من أن كلماته كانت موجهة إلى حقوق ملك فرنسا في الحكم لكن هذه الكلمات وخلال قرنين من الزمان قادت إلى الكتاب الأخضر للقذافي.

في الكلمة المدمرة التي القاها في 13 نوفمبر 1793 امام الجمعية العامة، خلال النقاشات الحادة بشأن محاكمة لويس السادس عشر، قال المتحدث بأن الملك لا يمكن تقديمه مثل أي مواطن عادى أمام المحكمة، وإنما يجب تقديمه كعدو للدولة ويجب إزالة اضراره.

ولقد اتبع سانت جوست منطقاً صلباً في حججه اصدار حكم يعني استخدام القوانين، القانون له علاقة بالقضاء. لكن ما هي العلاقة القانونية بين **الإنسانية والملوك؟. ما الذى يربط لويس بالشعب الفرنسي بعد خيانته؟.** المقصود بهذا الكلام في وجهة نظر الثوار هو موقف الملك المعادى للثورة والذى ظهر اثناء اتصاله بالحكومات الاجنبية. لكن سانت جوست، كان يرى بالاضافة إلى ذلك وجود موقف مبدئى بالنسبة له كان الحكم بحد ذاته يعني الجريمة ضد الشعوب، وهذه الجريمة لا يمكن التكفير عنها بواسطة محاكمة عادية، وإنما فقط باصدار حكم شعبي، وهذا الحكم يجب تنفيذه بالقوانين

المادية الثورية وبموجب حالة الطوارى الوطنية الناجمة عن التهديد بالغزو من قبل حكومتى النمسا وبروسيا، ويجب اعدام الملك بصفته عدواً للدولة.

وبذلك فصل الشاب الثوري، بتفكيره المتطرف، شخصية الحاكم عن المحكومين وعن الدولة، أي أن الموضوع ليس فقط تصرف الملك الخاطىء، وإنما الموضوع هو المؤسسة الملكية كلها.

إن استخدام مقولة «السلطة تفسد الطباع» ليس صحيحاً بشكل مطلق أما قول سانت جوست فهو على العكس من ذلك ـ إن المرء لا يمكنه الحكم ببراءة أى أنه ينفي بشكل عام أية امكانية لا ستخدام السلطة بشكل انساني. لهذا السبب فان محاكمة لويس السادس عشر يجب أن لا يقتصر فقط على اصدار حكم بموته، لكنها يجب أن تحاكم أيضاً المؤسسة الملكية وافنائها، بحيث لا يكون لها في أي وقت من الأوقات محلاً في المجتمع الانساني. ومع كل هذه القسوة وعدم التصالح الذى اظهره سانت جوست، علينا أن نفهم إنه عاش في زمن كان فيه الملك السلطة المطلقة وبذلك كانت إساءة السلطة والقوة لا حدود لها تقريباً.

إن صورة ملك أوربي ديمقراطي يحكم في أيامنا هذه، رفاهية قصره لا تختلف كثيراً عن مالك اسطبل خيول السباق أو أحد المدراء الاقتصاديين، وصورة هذا الملك وإلى جانبه رئيس وزراء اشتراكي، لم تكن في ذلك الوقت وارده على البال. لقد عرف سانت جوست ذاتياً صور الملوك والقياصرة الاقطاعيين الذين كانوا يحكمون اوربا في ذلك الوقت، هؤلاء الذين كانوا يعتقدون بانهم يحكمون كملوك مقدسين سادة كل شيء في ممالكهم، مسئولين عن الحياة والموت، الاقطاعيين كانوا يملكون حق التصرف بالفلاحين والمستأجرين، وهناك بالطبع كانت توجد جهود إنسانية متفرقة ومنفرده لدى الطبقات الحاكمة لكنها لم تجد لها أذناً صاغية ضمن سوء الأحوال العامة والاعتداءات على حقوق الإنسان.

الثورى سانت جوست. . . . عاش 200 سنة تقريباً قبل زمنه ـ في الوقت الحاضر يذهب العامل الحرفى أو الموظف بسيارته إلى مكان عمله ـ في زمنه

كان هناك الفرق الشاسع بين الثراء والفقر مثلما هو موجود اليوم في العالم الثالث، مثلاً في بعض أقطار امريكا اللاتينية. في هذا يظهر أن الملك كان بالنسبة لسانت جوست مذنباً سواء كان هو الطاغية أو مجرد ضعيف الشخصية وغير قادر على الحكم بسبب نفوذ مستشارية الدساسين وعشيقاته (الحظايا)، وبسبب مركزه الخاص كان مثالاً للوحشية، وعدم وجود أية علاقة بينه وبين حاجات ورغبات الجماهير. «الملكية جريمة ابدية، يمكن لأى شخص التصدي لها واستخدام السلاح ضدها.. هذه الجريمة لا يمكن تبريرها بواسطة عامة الشعب كله. وسوف يندهش المرء في يوم ما، عندما يعرف بأن في القرن الثامن عشر لم تتقدم البشرية عما كان عليه الوضع أيام القيصر في ذلك الوقت حوكم الطاغية أمام مجلس الشيوخ وبدون اجراءات شكلية أخرى غير 25 طعنة خنجر وبدون قانون اخر غير حرية روما».

بهذه الكلمات وبمثل هذه الحدة، التي لم يسمع مثلها أمام الجمعية العامة من قبل تحدث النائب الشاب المعجب ببروتس أمام النواب الذين لهم خبرة سياسية في العمل العام والجالسين على المدرجات.

وقال محذراً أولئك الذين يخشون ـ يخشي ضميرهم ـ من قتل الضحايا البشرية..

«نفس الرجال الذين يحاكمون لويس عليهم أن يؤسسوا جمهورية، أما أولئك الذين يعطون أى معنى للعقوبة العادلة لملك ما، فإنه لا يمكنهم ابداً اقامة جمهورية».

كان سانت جوست مثله مثل روبسبير، ضد حكم الاعدام، وعندما يطالب الآن ببرود برأس إنسان، كان حاكماً غير كُفء لكنه لم يكن مجرماً خبيثاً، فان دل على شيء فإنما يدل على أنه (سانت جوست) كان يرى لويس السادس عشر ليس إنساناً، وإنما ممثلاً للمؤسسة المكروهة والتي يجب القضاء عليها لمصلحة الدولة.

من النواب الممثلين لحوالى 80 مقاطعة وافق النصف تقريباً على نفي

الملك، لكن نتيجة لاغلبية بسيطة جداً، تم التمكن من اصدار حكم الاعدام.

ويدعى بعض المؤرخين بأن الحكم صدر بأكثرية صوت واحد فقط، ولربما كان مصير الملك والجمهورية الفتية قد اخذ منحاً آخر، لولا مرض أحد النواب وعدم استطاعته المشاركة في التصويت. هذه اراء غير مؤكدة مثلها مثل الكثير الذى قيل وكتب في القرنين عن ذلك الوقت «حكم الرعب» وعن رجاله. وبغض النظر عن الحقائق التي سجلت، وجد ويوجد في هذه الايام واثناء البحث عن الاحداث الماضية وعن تفسيرات ما حدث في ذلك الزمن، معسكرين أو وجهتى نظر، واحدة ثورية وأخرى محافظة وكل منهما لها تفسيرها الخاص بها.

على أية حال تمكن اقناع نصف اعضاء الجمعية العامة، قسم منهم بواسطة الاقتناع الذاتي والقسم الآخر بواسطة الخوف، لأن التصويت لم يكن سرياً بالاضافة إلى ذلك جاءت كلمات سانت جوست المهمة وسط أولئك النواب الذين لم يتوصلوا بعد إلى قرار واضح:

«إذا كان لويس غير مذنب، إذن الشعب هو المذنب».

هذه الكلمات كانت حاسمة بالنسبة للنواب في الجناح المعتدل، لأن هذه الكلمات لم تكن تعني غير أنه في حالة تبرئة الملك، فإن اعداء الثورة في الداخل والخارج سيقولون بأن الجمعية العامة غير شرعية وسوف يمكنهم بذلك تجريدها من صلاحياتها.

وهكذا فإن تأنيب الضمير الذى تحرك هنا وهناك والذى ضعف أمام الضرورة القصوى، مكن تنفيذ الحكم في 21 يناير 1793 في ساحة الثورة. وبعد أن نفذت المقصلة واجبها الدموى بالرجل (الملك) سيء الطالع، بقى حوالى 750 نائباً، كان عليهم محاولة حكم فرنسا، ودخلوا مع بعضهم البعض في صراع مرير، بكل ما تعنيه الكلمة، لأن هذا الصراع أدى بحياة الكثيرين منهم إلى الاعدام بالمقصلة. والتي كانت توصف بواسطة المزاح الشعبي الشنيع «مذبح الوطن».

بالنسبة لقائد الثورة القذافي لا يمكن طرح قضية، فيما إذا يمكن أيضاً

الحكم ببراءة، لأن الدولة التي أسسها بناء على ما جاء في الكتاب الأخضر لا تحتاج إلى حاكم ولا إلى حكومة ولا حتى ممثلون عن الشعب على غرار النموذج الباريسي.

لكن كذلك من المنطقي مثلما هو من المغرى تصور وقوف القذافي أمام منصة الخطابة في الجمعية العامة، كعضو للجماعة المتطرفة جداً من «حزب الجبل» ولربما استخدم احدى مقولات سانت جوست بشكل آخر مثلاً «أولئك الذين يُضَمِنون السؤال، «هل يعدم الملك أو يعفى عنه» أية أهمية، لا يستطيعون ابداً اقامة الجمهورية.

القذافي اليعقوبى (نسبة إلى اليعاقبة) كان سيكون مقتنعاً بأن الثورة متأصلة بشكل عميق لدى الشعب الفرنسي وبأن الملك لويس الباقي على قيد الحياة لا يستطيع القضاء عليها بعد اقصائه.

مثلما لم يخش العقيد القذافي وثورته من الملك ادريس الذي عاش في المنفى القريب (في دولة مجاورة).

ربما ترك القذافي اليعقوبي ملك فرنسا وهو في طريقه للهرب المحزن - والمضحك إلى (فارنا) في يوليو 1791 ولم يحاول ارجاعه، لكي يجعل منه بعد سنة ونصف شهيداً باعدامه بالمقصلة.

ربما كان قد أمر القذافي رئيس البريد الوطنى المجتهد (Drotte) (دروت) الذى تعرف على الملك وقبض عليه متنكراً في زى خادم «دعه يهرب» ويذهب إلى حلفائه في الخارج وبهذا نتخلص منه ومن مشاكله.

كلا ان القذافي اليعقوبي الفخور، ربما لم يقدم على اعدام الملك لويس السادس عشر خوفاً منه أن يصبح اداة فعاله بيد اعداء الجمهورية. القذافي كان سيحتقره جداً، ولن يسمح له بالتشرف بمحاكمة صورية مثيرة.

لكن سانت جوست وروبسبير اعتقدا اعتقاداً راسخاً بالخطر، الذي كان سينجم عن بقاء الملك حياً على الجمهورية الفتية التي مرت 3 أشهر تقريباً على قيامها.

وهو نفس الخوف، الذي استمر حتى نهاية حكم الرعب، والذي اعدم نتيجة له العديد من شخصيات الثورة نفسها:

دانتون (Danton) إلى جانب مارات (Marat) وأيضاً روبسبير المتحمس للثورة منذ بدايتها، ولكنه ليس لغوياً مثل سانت جوست، ولكنه كان شعلة بمعنى الكلمة.

دانتون سار أيضاً على هذا الطريق المر القاسي، حرب الأخوة المدمر وما رافقه من نفاق، سوء الظن والمحافظة على الذات. وهكذا كان الموت الذاتي المفجع للثورة. إذا قال دانتون على درجات المقصلة للسيد سانسون الجلاد «ستعرض رأسي على الشعب، رأسي يستحق الجهد».

الشعب؟ أين كان هو؟ هل كان الهاتفون للمشاهد المثيرة الواقفين حول المقصلة والذين يهتفون «تعيش الجمهورية» عندما تطيح المقصلة بأحد الرؤوس هؤلاء الذين صاحوا بنفس الحماس عندما قطع رأس الملك وبعد ذلك بـ 18 شهراً عندما أعدم روبسبير وسانت جوست. هذان الشخصان الثوريان الحقيقيان والجمهوريان النزيهان. أو كان الشعب هو أولئك المواطنون الذين تظاهروا أمام قصر العدالة اثناء محاكمة دانتون والذين كانوا يطالبون بإطلاق سراح محبوبهم؟.

أو هل الشعب. هو تلك النساء الفلاحات المتدينات، اللواتي سكبن الدموع خفية على الملك وخلف ظهور ازواجهن؟ على هذا الملك الذي لم تراه هؤلاء النسوة الفقيرات مطلقاً واللواتي لم يعرفن سبب صعوبة حياتهن المرة أو كن غير مباليات؟.

- هل هؤلاء النساء الساذجات المخلصات للملك، هن الشعب؟.

نعم هن أيضاً كل هؤلاء كانوا يشكلون الشعب الهاتفون، اصدقاء دانتون الذين لاحول لهم ولا قوة، الساذجون المخلصون للملك. هؤلاء صرخوا تظاهروا وبكوا، لكن الكثير منهم لم يعرف قط، لماذا يصرخ اثناء الاعدامات أو ضد من يتظاهر ولصالح من يبكي. لأن هذا الشعب قد توقف (غاص) في بدايات الثورة، لأن هذا الشعب عاش الأمل الكبير، لكنه لم يعش الاستجابة النهائية للأمل الكبير.

كانت الجماهير الغاضبة تأتي من كل المدن والقرى حتى تصل القصور الملكية في باريس وفرساي، اعتقد الشعب أنه قوى عندما هجم على الباستيل الذي كان رمزاً للظلم والقهر.

لكن الثـورة انـزلقت من وسط الشعب وانقسمت إلى طبقـات، إلى مجموعات ومجموعات أصغر تهدف للوصول إلى الحكم.

هذه المجاميع لم تكن تبدي أي اهتمـام، إلاَّ ظاهـرياً بمصـالح وخيـر الشعـب، هذه الانقسامات المشئومة، هذه الاحـزاب الانفصاليـة الغريبـة عن الشعب جعلت في النهاية الجمعية العامة الضعيفة وغير المتأكدة في نفسها، غير قادرة على التصدي للمهام الداخلية المتزايدة الصعوبة والضغط الخارجي.

فقط سلطة موحدة قائمة على السيادة الشعبية، كان بامكانها ابعاد الطاقة وانقاد الثورة. لكن الشعب لم يحصل بعد في ذلك الوقت على الرشد الكامل ونضوجه السياسي.

لقد تم ايقاظ الشعب، لكن اضيعت فرصة تربيته لكي يأخذ زمام اموره بيده، ونقلت السلطة إلى مجموعة منتخبة صغيرة من المواطنين.

يقـول الكتـاب الاخضــر للقـذافي «المجلس النيـابي حكم غيـابي» «لأن الديمقراطية الحقيقية تعني سلطة الشعب لا سلطة نائبة عنه».

إن هذه المشاركة المباشرة للشعب في القضايـا السياسيـة المهمة كـان يمكن أيضاً التعبير عنهـا في استفتاء الشعب بشـأن تنفيذ حكم اعـدام لويس السادس عشر بعد محاكمته. المواطن الذي يرتكب جـريمة ضـد دولته مثـل الخيانة العظمى التخريب، الفساد.. يعتبر بأنه « ضد مصالح الشعب ـ مخرب» اليس من حق الشعب كله حق المشاركة في اتخاذ القرار، وان الشعب يشعر بأنه حقيقة قد تضررت مصالحه من جراء تصرف الشخص، وانه من حقه تحديد العقوبة المناسبة؟.

لكن حتى تلك المسماة « بالمحاكم الشعبية» التي كانت تعمل في عهد هتلر في المانيا، لم يشارك الشعب فيها بالعكس الشعب كان يعرف بالأحكام

التي تصدرها مثل هذه المحكام في فترة متأخرة جداً أو أنه لم يعرف قط بأحكام الاعدام السرية التي كانت تتم بسرعة. حتى في هذه الحالة كان هناك من «يمثل الشعب» وهؤلاء كانوا كوادر الحزب الواحد في أدوار مختلفة المدعي العام القضاة ومحامي الدفاع. نعم كانت هناك أيضاً أحكام بالإفراج لكن في حالات قليلة جداً وكانت في الغالب محاكم صورية، أحكام الاعدام فيها قد تم اتخاذها مسبقاً.

حتى في الجماهيرية يمكن اصدار اقسى الأحكام، لكن هنا تصدر المؤتمرات الشعبية مثل هذه الأحكام وإن الجملة التي تنطبق في مثل هذه الحالة «باسم الشعب» ليست خالية المعنى في الجماهيرية، كما هو الحال في ما يسمي بالدول الديمقراطية. الشعب الليبي يحق له محاكمة واصدار أحكام عندما يعتقد بأن مصالحه قد تضررت فعلاً من جراء أفعال شخص أو يرى إنه معرض للأخطار من جراء هذه التصرفات.

إن حق اصدار أحكام الموت أو الإفراج عن مواطن ما، يحق للشعب وحده فقط اصدارها، وليس لمجموعة من 100 شخص يمثلون الشعب أو مجموعة مختارة من المحلفين بصورة تعسفية.

لكن القادة في الجمعية العمومية كانوا يخشون من استفتاء الشعب، خوفاً من أن يكون حكم الشعب لصالح الملك، ولهذا بقوا على رايهم القائل إن تبديل حكم الاعدام إلى حكم بالسجن أو بالنفى قد يعرض أمن الدولة للخطر. وقد اعلنوا بصراحة بأنهم وجلوا من خطر الاستفتاء، لأنه لم يكن معلوماً لأحد نتيجة هذا التصرف. هل كان هناك فعلاً في اوساط الشعب الفرنسي، الكثير من الناس لازالوا غير واعين سياسياً بالمرة، كانوا ينظرون إلى الملكية بأنها مؤسسة إلآهية لا يمكن المساس بها، ويجب احترامها. وكان هناك أيضاً أناس سيرفضون تنفيذ حكم الموت بالملك لاسباب الرحمة والشفقة بأطفال الملك الابرياء. ولربما كان هناك أناس آخرين لديهم تعاطف خفي مع الملكة ماري انتوانيت، بالرغم من أن بنت القيصر النمساوي المتعجرفة لا تستحق العطف. لكن فتنة (جاذبية) النساء تجد لها دائماً وفي كل مكان من يؤيدها ويتعاطف

معها. هذه الجماهير الحية المليئة بالانفعالات لم تستطع لهذا السبب أن تصبح أعلى سلطة بعد المحكمة في مثل هذه القضية الحساسة.

وتسائل من هو ضد الاستفتاء الشعبي «لماذا أيضاً؟» نحن من انتخبهم الشعب الفرنسي كله، بحرية نيابة عنه، واعطانا الشعب ثقته ويعرف هو بأن مصالحه ومطالبة تحقق بأحسن صورة من قبلنا. لماذا إذا سؤال كل مواطن عن رأية، عندما نكون نحن نواب الجمعية العامة من حقنا كصوت للشعب التعبير عن رغبته؟».

بدون شك قال سانت جوست من وجهة نظره وبصورة مخلصة عندما تحدث في كلماته المهمة والمثيرة للجدل كثيراً عن الذنب الجماعي لكل الحكام لكنه لم يفكر بأنه نقل السلطة ـ ومعها الذنب ـ من شخص إلى 750 شخصاً. هو انهى الملك بالقوة، دون أن يعطي الشعب سيادته الحقيقية التي كانت تطوف في ذهنه. لكن سانت جوست استطاع ربما استباق زمنه بالافكار وليس بالأعمال.

جمهورية لها برلمان مؤلف من 750 نائباً، كانت تعتبر بالنسبة لفرنسا عام 1792 خطوة مهمة على طريق الديمقراطية.

لكن هؤلاء الرجال ـ الـ 750 ـ نواب الجمعية العامة لم يكونوا بأي حال هم الشعب المكون من ملايين البشر، لكنهم كانوا عبارة عن 8 ـ 10 مواطنين من حوالى 80 مقاطعة.

وكان العقيد الليبي القذافي هو أول من وجد مفتاح الحل لهذه المشكلة **«الحكم بدون إدانة»، يمكن أن يتم فقط بواسطة الشعب كله، لأن كل فرد** يصبح مسؤولا عن الجميع. هو لم يطرح الفكرة بوضوح فقط، لكنه طبقها في بلده أيضاً عندما أعلن عن تخليه في عام 1977 عن منصبه الرسمى كرئيس للدولة وبذلك مكّن الشعب من ممارسة السلطة كلها وهكذا تأسست الجماهيرية دولة الجماهير وظل معمر القذافي **قائداً للثورة فقط.**

فقط..؟ وهو أعطى «الحكم» مفهوماً آخر «القيادة» وبذلك أعطى مفهوم الحكم بديلاً بديعاً. قيادة شعب لاتعني سلطة الحكم، بل العمل المشترك وجاء

في شروح الكتاب الأخضر عن دور الثوار، هم لا يشعرون ولا يعبرون عن احساسيس الجماهير وإنما هم يعطون الجماهير الوسيلة التي بواسطتها تعبر ذاتياً عن رغباتها ومطالبها. وبذلك يصبح الشعب هو رئيس نفسه ويصبح بذلك وجود أي حكومة تقليدية لا لزوم لها.

القذافي يثق بالشعب كثيراً جداً ولهذا لكان كيعقوبي عام 1792 لم يقف ضد فكرة استفتاء الشعب. وعندما كان اغلبية الشعب الفرنسي بسبب احترام العائلة أو بسبب الاشفاق ستكون مع التصويت لصالح العفو لكان هذا الامر بالنسبة له «القذافي» حتى ولو كان ضد قناعته الشخصية نتيجة لا يمكن المساس بها؟.

هـذا السؤال وجهته للعقيـد وكان جـوابه «قصيـراً وواضحاً» عـلى الشعب أن يقـرر دائماً. الثورة اذا كانت ثورة شعبيـة حقيقية وليست مجـرد ثورة قصيـرة الأمد لمجموعة طموحة وصولية، تستطيع أن تصمد إلى أكثر من مجرد ملك فتنازل عن الحكم سواء بقي داخل البلاد أو خارجها. ربما أن العفو كان سيفيد أكثر سمعة الجمهورية الفرنسية من ملك معدوم، لأنه وحتى يومنا هذا يري الكثيرون من مؤيدى الثورة الفرنسية القريبين بشكل خاص من أفكار سانت جوست في الانتقام الدموي من الملك، الذي قدم رقبته للذنوب الكثيرة لأسلافه يرون في قتله لطخة سوداء في وسط الصورة المضيئة لحركة الحرية العظيمة تلك. وفي النهاية لم تستطع الجمهورية بقتل الملك بالمقصلة منع الكوارث التي تعاقبت بعد ذلك. الصراع الكبير مع انجلترا، نابليون وحروبه الطويلة المدمرة، حقد اوربا ضد فرنسا التي أصبحت امبريالية وأخيراً الاهانة العميقة التي أصيبت بها فرنسا.

كان الطريق طويلاً من الثورة المتقطعة ونتائجها المفجعة والمحتومة حتى الثورات في عصرنا الحالي وتركيباتها الجديدة من ماركس، لينين ومـاو، من التقدم، من المعارف والاخطاء. . هذا الطريق قاد إلى ثورة سبتمبر غير الدموية **التي قام بها القذافي ووضع سيادة الشعب المباشرة موضـع التطبيق بـدلاً من** اجهزة الحكومـة المشكوك في أمـرها والتي تقـود حتماً إلى الـذنب (ارتكاب الآثام).



الديمقراطيــة هي رقابــة الشعب على نفسه

الديمقراطية هي رقابة الشعب على نفسه

«المؤسسات هي الضمانة لحكومة شعب حر ضد فساد الأخلاق وضمان للشعب ضد فساد الحكومة».

هدف المؤسسات، ايقاظ المقاومة لدى المواطن ضد الظلم، واجبار الموظفين والشباب على الفضيلة، حث الرجال على الشجاعة والبساطة، وجعلهم عادليين وعاطفيين، وربطهم ببعض عن طريق العلاقات المنسجمة، وخلق الوحدة بين العائلة والصداقة بين المواطنين، وخنق الشعور الاجرامى ورغبة القلوب باعادة البراءة الطبيعية.

في هذه المقدمة التي كتبها سانت جوست لـ «المؤسسات الجمهورية» اظهرت مدى اهتمامه بالسياسة والانسان، حيث أن الطهارة هي أساس مهم جداً لدولة صحية.

استخدام سانت جوست عدة مرات كلمات مثل «الحكومة» و«السلطة» وهو لم يستطع تصور وجود مجتمع انساني ما بدون وجود سلطة فوقية بالرغم من إنه انتقد هذه السلطة مرارا وبشكل حاد.

وقال إن الحكومة يجب أن تحدد صلاحيتها بشكل كبير وتخضع لرقابة مستمرة من الشعب، لكنها يجب أن توجد وتبقى - إن كل اعماله التي تركها -

تؤكد بأنه لم ينف وجودها، لربما توصل إلى فكرة ازالتها، لو أنه طال به العمر أكثر، وامكانية تنفيذ افكاره في الواقع.

لكنه من غير المفيد عند التحدث عن التصورات التاريخية، استخدام كلمة «لو»، سانت جوست لم يستطع لعب الدور، الذى يلعبه اليوم العقيد معمر القذافي في كتابه الأخضر، لم يستطع سبق زمنه، كان هذا هو مصيره، مثلما هو مصير القذافي الذي كسر كأول حاكم العمل بالديمقرطية العادية ونقل جميع السلطات إلى الشعب.

حتى القذافي لم يتغافل عن ذلك ـ وهنا توجد روابط بين فكرة الدولة لديه ولدى مؤسسات سانت جوست التي تقول بضرورة وجود «فضائل لدى المواطنين » في المجتمع الجديد مثل: «الشعور بالعدالة، الاستقامة والسماحة والكرم، في حالة عدم رغبة الشعب الذي ترك لذاته العيش في الفوضى والاباحية. ولمنع مثل هذه الحالة يصور الكتاب الأخضر المواطنون بصور" القوانين الطبيعية، حيث هناك مجال واسع للعادات والتقاليد والعائلة. حتى بالنسبة للعقيد، فإن القوانين الصادرة عن الحكومة لا تستطيع وحدها تعليم وتحسين المواطن، بل وقبل كل شيء المعارف التي تنتقل من إنسان لآخر.

ويريد القذافي فصل الإنسان الفرد عن كل انواع التجمعات، سواء كانت حزباً أو طبقة، وبهذا يريد إعطاء ضمانة للإنسان بتكوين رأيه السياسي.

إنه من السهل والمريح للفرد الانضواء تحت سلطة حزب ما، يفكر ويعمل من أجله، وهو باختياره هذا الحزب يعتقد بأنه حقق مصالحه على أحسن وجهه... ويقوم الحزب كذلك في مقابل الحصول على أصوات الناخبين بتوزيع مراعاة أعضائه اثناء توزيع اماكن العمل، أو السكوت عن التصرفات الخاطئة لأعضائه.

إن مثل هذه العلاقة المصلحية المتبادلة بين العضو والحزب تجعل امكانية استخدام القانون مشكوك بها وتقود في النهاية إلى الفساد والرشوة والوصاية على المواطن في ظل ديمقراطية مزعومة.

بالاضافة إلى ذلك فان المواطن الذي لاينتمي إلى حزب ما أو ذلك الذي

ينتمي إلى حزب معارضة صغير لا يملك مقاعد في البرلمان، دوره ثانوي في شؤون دولته.

وهذا ينطبق على المواطنين في الدولة ذات نظام الحزب الواحد والدول التي تأخذ بنظام تعدد الاحزاب ونظام الانتخابات القائم على النسب المئوية.

ويقول القذافي في بداية الكتاب الأخضر « ان كافة الانظمة السياسية في العالم الآن هي نتيجة صراع ادوات الحكم» ويستطرد قائلاً «الصراع يمكن أن يكون سليماً أو مسلحاً، كصراع الطبقات أو الطوائف أو القبائل أو الأحزاب أو الأفراد» ونتيجته دائماً فوز أداة حكم وهزيمة الشعب.

وحسب وجهة نظر القذافي فإن الشعب مفصول فصلاً كلياً عن التمثيل أي البرلمان، لأن الأحزاب الفائزة في الانتخابات تستلم زمام السلطة بعد الانتخابات وتقوم هي بدلاً عن الشعب باتخاذ القرارات.

إن البرلمان إذاً «برلمان الحزب (أو الأحزاب) وليس برلمان الشعب» ولهذا فأن التمثيل تدجيل، تزييف للديمقراطية، نفى المشاركة وتقسيم المجتمع.

ويقول الكتاب الأخضر حول نظام الانتخابات ما يلي:
(إن الصراع السياسي الذي يسفر عن فوز مرشح ما بنسبة 51 ٪ مثلاً من مجموعة أصوات الناخبين تكون نتيجة أداة حكم دكتاتورية ولكن في ثوب ديمقراطى مزيف، حيث أن 49 ٪ من الناخبين تحكمهم أداة حكم لم ينتخبوها، بل فرضت عليهم وتلك هي الدكتاتورية وقد يسفر هذا الصراع السياسي عن فوز أداة حكم لا تمثل إلا الاقلية، وذلك عندما تتوزع اصوات الناخبين على مجموعة مرشحين ينال أحدهم عدداً أكبر من الأصوات بالنسبة لكل واحد منهم على وحدة، ولكن اذا جمعت الأصوات بالنسبة لكل واحد منهم على حدة، ولكن اذا جمعت الاصوات التي نالها الذين أقل منه أصبحت أغلبية ساحقة، ومع هذا ينجح صاحب الأصوات الأقل، ويعتبر نجاحه شرعياً وديمقراطياً.

وفي الواقع تقوم دكتاتورية في ثوب ديمقراطية زائفة، هذه هي حقيقة

النظم السياسية السائدة في العالم اليوم، والتي يبدو واضحاً تزييفها للديمقراطية الحقيقية، وإنها أنظمة دكتاتورية).

الشعب في الجماهيرية غير مقسم إلى أحزاب، حيث لا يتحدث إلاَّ مَنْ هو مخول، بل أفراد الشعب من كل الطبقات لهم حق الكلام في «المؤتمرات الشعبية الاساسية» والتصويت على القرارات أو الانتقاد أي الصورة مختلفة عن ما تعرفه عن الأنظمة البرلمانية، حيث يقوم الناخب بإعطاء صوته سرياً إلى الحزب، الذي يمثل تصوراته، لكن لا يمثل دائماً رأيه الخاص.

وذكر معمر القذافي في الجزء الأول من الكتاب الأخضر ما يلي:

«إن نظرية التمثيل النيابي نادى بها الفلاسفة والمفكرون والكتاب عندما كانت الشعوب تساق كالقطيع بواسطة الملوك والسلاطين والفاتحين وهي لا تدري.. وكان أقصى ما تطمع فيه الشعوب في تلك العصور هو أن يكون لها ممثل ينوب عنها مع أولئك الحكام».

ويضيف المؤلف إلى ذلك بأنه في بداية عصر الجماهير ليس من المعقول قبول فكرة الديمقراطية القائمة فقط على انتخاب عدد من النواب الذين يقومون بتمثيل الجماهير الغفيرة، إن السلطة يجب أن تكون بالكامل للشعب.
ويستطرد المؤلف قائلاً: «إن امتن الدكتاتوريات التي عرفها العالم قامت في ظل المجالس النيابية».

هذه محاسبة عسيرة مع النظام الذي نعرفه.

أما عن «الحزب» فيقول الكتاب الأخضر التالي:
«الحزب أداة حكم دكتاتورية تمكن أصحاب الرؤية الواحدة أو المصلحة الواحدة من حكم الشعب بأكمله». وهذا يعني إن اعضاء الحزب لهم مكانة أعلى من أفراد الشعب الذين لا ينتمون للأحزاب وهؤلاء يخضعون لدكتاتورية الحزب.

«ومهما تعددت الأحزاب فالنظرية واحدة، بل يزيد تعددها من حدة الصراع على السلطة.. ويؤدى الصراع الحزبي على السلطة إلى تحطيم أسس أى انجاز للشعب».

وبناء على ما تقدم تكون النتيجة الصحيحة هي:
مثل هذا التحطيم من قبل المعارضة يعتبر تبريراً لسحب البساط من تحت أرجل الحزب الحاكم، من أجل استلام سلطة الحكم.

إذا هناك ردود فعل متصلة تعيد نفسها بالعكس بعد كل مرحلة انتخابية والخاسر هي الجماهير غير الحزبية، لأن كل آراء الأفراد تذهب سدى في المعركة الانتخابية التي تخوضها الأحزاب الكبيرة.
ومن الجدير بالذكر هنا التنويه إلى ما قاله «سانت جوست» في احدى خطبة أمام الجمعية العمومية بتاريخ 1793/4/24م، الخاصة بالدستور الفرنسي عن الانتخاب:

«اعتبر إن من المبادىء الاساسية لجمهوريتنا هو وجوب قيام الشعب كله بانتخاب أعضاء الجمعية العمومية، من لا ينتخب مباشرة من الشعب، لا يمثل الشعب، وعندما اتحدث عن التمثيل لا أعني أن سيادة ممثلة هنا، وإنما ببساطة يناب عنه، والشعب عليه أن يرفض أو يقبل».

وعندما يتحدث هو هنا عن التمثيل، فهو لا يساوي النيابة مع الشعب بأجمعه، لكنه رغم ذلك لم يجد طريقاً مثلما فعل القذافي لمشاركة مباشرة لكل المواطنين في الحكم، وكان يري فقط تقسيم جهاز الحكومة إلى سلطات محلية، كما هي معروفة اليوم:

تكون تحت سلطة الجمعية العمومية (ثانوي)، (ممثلين عن المناطق، وممثلين عن البلديات) هذه الحكومة المحلية أو المراكز الإدارية، تتكون مثلها مثل الجمعية العمومية من كوادر منتخبة، أي نظام يختلف كثيراً عن ديمقراطية القذافي المباشرة التي يضعها بواسطة المؤتمرات الشعبية.

بالرغم من أفكار سانت جوست التقدمية وبالرغم من تفكيره الدقيق بكل اشكال نظام الدولة الديمقراطية إلاّ إنه تمسك بفكرته القائلة، أنه بتحويله النظام الملكي إلى نظام جمهوري قد ساعد الشعب في الحصول على حقه وحريته وبعد هذه الخطوة المهمة يبقى مهمة المحافظة على الكيان الجمهوري، وحسب وجهة نظره هناك اساسان لهذه المهمة:

الأول: مواطنون لهم صفات أخلاقية عالية، كممثلين للشعب.

الثاني: المؤسسات الجمهورية، التي بها يمكن تطوير فضائل المواطنين.

إن السنوات الخمسة الحاكمة والمثيرة منذ سقوط الباستيل في 14 يوليو عام 1789م حتى سقوط روبسبير وسانت جوست في 27 يوليو 1794م مهدت الطريق إلى حكم الشعب المباشر، لكن هذا الطريق لم يصل إلى نهايته.

بالطبع كانت الثورة في كيان الشعب، في البداية كانت في غريزته أكثر من عقله، ووصلت صيحتها إلى ضواحي باريس، حيث الرذيلة والقذارة منتشرة في الحارات المظلمة، والعهر والجريمة قد وصلت في الغالب حتى إلى الأطفال الذين كانوا يكافحون ضد الموت جوعاً.

كل هؤلاء الفقراء جداً كانوا يعرفون ما يجري في العالم: التغيير الذي لم يكن موجوداً من قبل في مجال السلطة والثروة، توزيع جديد لكل السلع الأرضية، التي لا يجب حجبها عن أي فرد، لكنهم كانوا يشعرون بهذه المتغيرات بالأمل غير الواضح فقط، وليست لديهم معلومات مباشرة عن الأحداث المدهشة والأشخاص الرئيسيين الذين يسيرونها.

أما المواطنون (البرجوازيون) الكبار والصغار مثل الموظفون، أصحاب المصانع، والمحامون والتجار، وكذلك الحرفيون، الخبازون، بائعي الخضروات والخياطون. . كل هؤلاء عاشوا الثورة بطريقة مختلفة.

هؤلاء لم يسكنوا في مساكن بائسة مظلمة، وكانوا يعملون بصورة علانية، وكانوا يشاهدون ويسمعون ما يجري في باريس الكبيرة، بالاضافة إلى ذلك كانوا يقرأون الجرائد اليومية التي ظهرت إلى الوجود بكثرة منذ بداية الثورة، قبل هذا التاريخ كانت توجد مطبوعات غير دورية وقليلة، أما الآن فقد اصدر كل حزب جديد جريدته الخاصة به، وكانت الصحف والمنشورات موجودة في محلات بيع الكتب وكان بائعي الصحف في الشارع ينادون بعناوين الصحف على مسمع من الماره، وهكذا بدأت الحياة تأخذ الطابع السياسي، وبدأ النقاش السياسي

داخل اماكن العمل، وفي المطاعم والمقاهي، بل حتى داخل العائلة، وظهرت علائم الإختلاف في صفوف الحركات الثورية.

وكانت النوادي أيضاً من أهم اشكال العمل السياسي لمختلف الاتجاهات حيث كان يخطب فيها الخطباء الكبار: ابتداء من نادى المعتدلين والادباء الذى كان يضم في صفوفه أيضاً النبلاء والاشراف، الذين جاءوا من الصالونات الفلسفية، حتى اليعاقبة المتطرفين، الذين سموا ناديهم باسم الدير القديم سانكت يعقوب، إلى جانب ذلك كانت توجد كومونة باريس[أ] وادارة المدينة المقسمة إلى 48 قسم، والتي لعبت بعد قليل دوراً نشيطاً جداً، كل هؤلاء كانوا يقولون عن انفسهم بانهم وطنيون، كلهم كانوا يؤيدون الثورة بحماس، حتى في الوقت الذي ظهرت فيه خلافاتهم القاتلة.

لكن رغم النشاط السياسي والمفاجىء الجديد للجماهير التي كانت حتى ذلك الوقت جاهلة بشكل كبير، لا يمكن التحدث عن حكم الشعب الحقيقي.

إن التآخي العام انضمام ذوي الآراء الواحدة إلى النوادي والجمعيات

التقارب بين الشعب العامل والجيش (كان الاثنان اثناء الحكم الملكي في حالة خصام)

كل ذلك تم عن طريق التضامن الحر ضد العدو الواحد: ضد الملك وحاشيته الفاسدة وحلفائه الأجانب، كل هذه النوادي والجمعيات لم تكن تملك سلطات حقيقية ما لكنها كانت تستطيع التأثير على الناس لصالح هذا الطرف أو ذاك، وكانت تنوه في صحفها إلى سوء الحالة أو كسب اصدقاء لقادة الأجنحة السياسية المفضلين.

إن سلطة حكم الجمهورية الفرنسية كانت توجد في يد الجمعية العمومية المكونة من 750 نائباً منتخباً من كل فرنسا[ب].

إلى جانب ذلك كانت هناك لجان مثل «لجنة الرفاهية» و «اللجنة العامة

(أ) لجنة ثورية حلت محل بلدية باريس في الثورة الفرنسية عام 1789م وما لبثت أن استولت على السلطة العليا في الدولة.

(ب) حكومة باريس الاشتراكية من 18 مارس إلى 27 مايو 1871م.

للأمن»، هاتين اللجنتين اللتان كانتا تتكونان ـ كل واحدة منهما ـ من 12 عضوا، وكان كل من روبسبير وسانت جوست ينتميان لهما أيضاً، وهاتان اللجنتان كانتا تشكلان السلطة الحقيقية في فرنسا، وكانت المحكمة الثورية المخيفة تقع ضمن صلاحياتهما وكانتا تستطيعان التأثير على قرارات الجمعية العمومية.

إن حكومة الثورة كانت بموجب دستور 1793م، تعتمد على المبدأ الديمقراطي لسيادة الشعب، لكنها في الحقيقة كانت حكومة تمثيلية.

إن البديل الذي يقدمه الكتاب الأخضر للقذافي، هو انهاء جميع اشكال التمثيل البرلماني، الذي يصفه بالديكتاتورية.

«إن هذه النظرية الجديدة تقوم على أساس سلطة الشعب دون نيابة أو تمثيل.. وتحقق ديمقراطية مباشرة بشكل منظم وفعال، غير تلك المحاولة القديمة للديمقراطية المباشرة المفتقرة إلى امكانية التطبيق على أرض الواقع والخالية من الجدية لفقدانها للتنظيم الشعبي على المستويات الدنيا».

هذه «المستويات الدنيا» تتكون في الجماهير الليبية من المؤتمرات الشعبية، التي لا يرى فيها القذافي دكتاتورية الجماهير، وإنما التعبير عن المشاركة الشخصية المباشرة في القرارات الخاصة في أهم مصالح الدولة..

لقد عرف وطبق اليونان القدماء ديمقراطية قريبة من الشعب لكنها مع مرور الزمن ابتعدت عن مضمونها الأول، بسبب أنظمة الحكم كان سانت جوست قد تأثر من فكرة المجتمع المثالي، لكنه لم يستطع تحقيق حلمه هذا خلال السنتين من عمره السياسي تقريباً.

«الارادة العامة غير قابلة للتقسيم.. الطغاة يقسمون الشعوب حتى يستطيعوا الحكم بسهولة، قسموا السلطة، إذا شأتم، حتى تستطيع الحرية أن تسيطر..

إن محتوى هذه الكلمات التي نطق بها سانت جوست أمام الجمعية العمومية، بقت نظرية وحلم، لكن «توزيع السلطة» تظهر بشكل حقيقي جداً في الكتاب الأخضر لمعمر القذافي.

الفصل الأول/ حيث يقول:

«المؤتمرات الشعبية هي الوسيلة الوحيدة للديمقراطية الشعبية.

إن أي نظام للحكم خلافاً لهذا الاسلوب، اسلوب المؤتمرات الشعبية هو نظام حكم غير ديمقراطي، المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية ليست من صنع الخيال بقدر ما هي نتاج للفكر الإنساني الذي استوعب كافة التجارب الإنسانية من أجل الديمقراطية..

إن الديمقراطية المباشرة هي الاسلوب المثالي الذي ليس محل نقاش أو خلاف في حالة تحققه واقعياً، وبما أن الشعب مهما كان عدده يستحيل جمعه دفعة واحدة ليناقش ويتدارس ويقرر سياسته، لذا انصرفت الأمم عن الديمقراطية المباشرة وبقيت مجرد فكرة طوباوية بعيدة عن دنيا الواقع.. وقد استعيض عنها بنظريات حكم عديدة كالمجالس النيابية والتكتلات الحزبية، والاستفتاءات التي أدت جميعها إلى عزل الشعب عن ممارسة سياسة شئونه، وسلب سيادته واحتكار السياسة والسيادة من قبل تلك الادوات المتعاقبة والمتصارعة على الحكم... من الفرد إلى الطبقة، إلى الطائفة والقبيلة إلى المجلس أو الحزب.

هذا ويرفض القذافي الاستفتاء الشعبي معللاً ذلك بما يلي:

«الاستفتاء تدجيل على الديمقراطية، إن الذين يقولون (نعم) والذين يقولون (لا) لم يعبروا في الحقيقة عن ارادتهم بل الجموا بحكم مفهوم الديمقراطية الحديثة، ولم يسمح لهم بالتفوه إلا بكلمة واحدة وهي: إما (نعم) وإما (لا)..

إن ذلك أقسى وأقصى نظام دكتاتورى كبحى، إن الذى يقول (لا) يجب أن يعبر عن سبب ذلك، ولماذا لم يقل (نعم) - والذى يقول (نعم) يجب أن يعلل هذه الموافقة، ولماذا لم يقل (لا) وماذا يريد كل واحد، وما سبب الموافقة أو الرفض..؟.. وجهة نظر عقلانية، بالرغم من وجود حالات لا يكفي فيها النطق «بنعم» أو «بلا»، حتى وإن وجد مجرد سببان للموافقة أو الرفض، بالإضافة إلى ذلك يجب التفكير في عملية ابداء الرأى الشخصى في الديمقراطية المباشرة، التي يجب أن تتجاوز مبدأ الاغلبية، وإلا تحل الفوضى

بسبب الرغبات الشخصية العديدة المختلفة والاعتراض، ولا يمكن بمثل هذا الوضع حل أية مشكلة، ولا القيام بأي عمل.

ويدعى ناقدو الديمقراطية القاعدية بأن قسماً كبيراً من الشعب لا يرغب في المشاركة، ويرغبون بترك أعمال الحكومة «لأولئك الجالسين فوق» ويقولون كيف يمكن لرجل عجوز، وظيفته طول حياته زرع طماطم يقرأ ويكتب بالكاد، التعامل مع السياسة الدولية ويقرر بشأنها وهل يعقد حلف عسكرى مع هذه الدولة أو تلك، أو فسخ حلف قائم مع احدى الدول؟.. كيف يمكن لربة بيت إلى جانب اهتماماتها العائلية، معرفة أفضلية توسيع الاسطول التجاري أو بناء مطار جديد؟.

هذه الحجج تبدو مفهومة، لكن ممكن الرد عليها بأنه في الديمقراطية الشعبية في مفهوم القذافي، فإن المواطنيين يحصلون على حق الإدارة الذاتية والمشاركة في صنع وتنفيذ القرارات بالإضافة إلى حصولهم على أكبر قدر من التعليم والمعلومات.

على أي حال فإن المواطن في الجماهيرية يملك امكانية التعبير عن رأيه الشخصي، وهو الذى يستخدم هذا الحق والامكانية أم لا - وحتى عندما ما يتفق رأيه مع مجموعة صغيرة ممن يشاركوه نفس الرأى أو يبقي رأيه وحيداً، والمهم إنه يخرج من دائرة السرية التي تضع المواطن في الأنظمة البرلمانية في ظل الأحزاب ورؤساء الدول.

«أنا لا انتمي إلى أي جناح برلمانى، وسوف احارب جميع الأجنحة».

بهذه الكلمات بدأ سانت جوست خطابه في 1794/7/27م، هذه الكلمات المعروفة من مخطوطته، لأنه أبعد في هذا اليوم ورفعت ضده دعوى.. حاول هو بهذا الخطاب إزالة كل الالتباسات وسوء الفهم داخل الجمعية العمومية التي ظهرت بسبب النفوذ السيء أو الفشل الشخصي والتي كان يمكن لاعداء الجمهورية في الخارج استغلالها ضدها، ونوه دائماً إلى السبب في ذلك وهي الدسائس والمكائد الحزبية التي أدت إلى تدهور أخلاق المواطنين ووصفها كما يلي:

«إن الأجنحة البرلمانية هي السم الأخطر على النظام الاجتماعي وتشكل

خطراً على حياة المواطن بواسطة الافتراءات، وهي التي تقوم بصنع المشاكل بين الأكاذيب والحقائق، الرذائل والفضائل، الحق والـظلم، وهي التي تقوم بتقطيع اواصر الشعب، وهي التي تضع غضب الحزب مكان الحرية، سيوف القـانون تتصـادم مع خنـاجر القتلة، المـرء لا يجرؤ على التحـدث ولا على السكوت، ويجبر المواطن على الاختيار بين جريمة وجريمة».

خلف هذا الاسلوب اللغوى الذي كان يستخدمه ثوار سنة 1789، يظهر صدق وعجز رجل قبل بحسن نيه الصفة الخبيثة التي اطلقت عليه (ارهـابي) «هذه الصفة كانت تطلق في ذلك الزمن على رجال ما يسمي بحكم الارهاب» وكان هو يريد استخـدام القسوة المتنـاهية مـع الشعب لامكانيـة تخليصه من العناصر الرذيلة وقيادته إلى الفضيلة وبعد أن لاحظ سانت جوست إن المواطن قد اخمد (أثلم) من جراء الارهاب «مثـل سقف الحلق عندمـا يشرب المـرء مشروبات قوية»، وضع كل أمله لتحسين وضع المواطن الفرنسي الذى حسب رأيه اصبح انانيا وغير مبالى، على المؤسسات التي عليها صياغة شكل جديد من البشر، الجمهوريون النموذجيون.

«ارجو من العناية الإلاهية منحى عـدة أيام أخـرى لتنبيه عقـل الشعب الفرنسي وسلطته التشريعية إلى المؤسسات».

لكن هل عدة أيام ستكفي سانت جوست حتى يحقق جزء من النجاح في سبيل مجهوداته الرامية لخلق مجتمع فاضل جديد، هذا السؤال يبقي مشكوكاً فيه، لكن المؤكد إن العناية الربانية اعطته من الوقت الذى طلبه، مدة 24 ساعة فقط.

«في اليوم الذي تتأكد فيه لدى القنـاعة، بـأنه من غيـر الممكن اعطاء الشعب الفرنسي اخلاقاً حسنة وجعله متشدداً رافضاً للظلم والطغيان، فسوف أقتل نفسى». . لكن المقصلة سبقته.

حتى معمر القذافي يتحدث في حالات قليلة عن القنوط واليأس، التدمير الذاتي. . كأخر طريق:

«من الأفضل، المرض والموت، بدلاً من الصحة والحياة بذل ومهانة. .

واذا اصبحت المهانة خبزنا اليومي، ترافقنا من الصباح حتى المساء واذا قبلنا مرغمين بآثام التفرقة والصهيونية والرجعية، بعدها يكون الموت أفضل».

وهذا وبينما تحس في كلام سانت جوست آثار طبيعة موطنه الحزينة حيث السماء غالباً ملبدة بالغيوم، تشعر في كلام القذافي المولود في منطقة حارة، حتى عندما يشعر بالحرارة، نبرة التحدي.

وهناك شيء مشترك بين الثوريين، هي معرفة ضرورة قيام التنظيم الداخلي للدولة على مبادىء أخلاقية متينة، بدون الاضرار الناتجة عن التأثير الحزبى، في نفس الوقت الذى تؤمن فيه سلامة الدولة ضد أى اعتداء خارجي.

إن انقسام الجمعية العمومية في 1793 إلى معتدليين ومتطرفيين، وانقسام هذين الحزبين إلى مجموعات صغيرة تطالب بالسلطة الشخصية من ناحية توجد أنظمة حكم غير ديمقراطية بعيدة عن الشعب، في يومنا هذا في كثير من الدول ـ كلها تعتمد على نفس الظواهر غير الصحية.

في ما يسمي بالديمقراطيات التقليدية المعروفة لدنيا، فتحت جميع الأبواب للرشوة والفساد بواسطة حكم الأحزاب مثال: عندما يخطط لبناء شارع جديد في مكان ما، بحيث يخترق احدى قريتين فقط، تصبح فرصة نواب القرية الموجودين في الادارة المحلية، والذين لهم تأثير ونفوذ أكبر، أكبر من القرية الأخرى.. وهنا تلعب في الغالب الرشوة دوراً، خاصة عندما تمس مثل هذه القضية مجموعة صناعية ومالية لها مصالح اقتصادية في احدى القريتين.. بغض النظر عن مثل هذا المثال والحالات المشابهة له في المجالات المحلية، يمكن أيضاً التأثير على القرارات التي تمس الدولة كلها ـ مثلاً: قانون الأحوال الشخصية، نظام الدراسة، الرعاية الصحية والاجتماعية.. إلخ ـ حيث تقوم حكومة الأحزاب الحاكمة بمساعدة جزء معين من الجماهير، لكي تستطيع شراء اصواتها الانتخابية.

إن التأثير الهدام الآخر لأنظمة الحكم البرلمانية هو الحقد الحزبى وهو الذى يقود إلى انقسام العائلات.... والزوجين، زملاء نفس المصنع، تلاميذ نفس الكلية.

المرء يسمع غالباً الاعتراض الأتي: في الأنظمة الخالية من الأحزاب توجد منافسة بين مختلف الفئات المهنية، وهذه تعتبر أيضاً من الظواهر السلبية كما هي ظاهرة الصراع الحزبي على السلطة وكسب اصوات الناخبين، يوجد خلاف كذلك بين المثقفين والحرفيين، بين الموظفين والفنانين.

هذا صحيح، لكن هذه الخلافات تصبح مضرة حقيقة، عندما يستخدمها حزب كبير لمصلحة طرف ضد طرف آخر.

يمكن فقط اقامة مجتمعات شعبية قوية ومتطورة في دولة تقسم فيها المسئولية بشكل كامل، حيث يستطيع ممثلو الفئات المهنية في التشاور معاً ويعرفون بأن المجتمع بحاجة إلى الكل وضرورة العمل مع بعضهم البعض وصولاً للتكامل.

صحيح تسقط في الدول المطلقة القائمة على نظام الحزب الواحد أو تلك التي تعيش في ظل دكتاتور مطلق المنافسة الحزبية الداخلية، وتأثيراتها على التجارة والصناعة والثقافة.. إلخ لكن تستمر بصورة سرية الرشوة والفساد والحماية والمحسوبية الشخصية في حين يفرض مثل هذا النظام ارادته على الشعب ويمنع أية انتقادات أو اعتراضات.

اثناء البحث عن نظام حكومة أفضل، فان الحل سهل وطبيعي ويتعجب المرء من ايجاد هذا الحل في الكتاب الأخضر لمعمر القذافي رغم وجود خبرات عن الديمقراطية لعقود طويلة من السنين:

«... وما تباين واختلاف الأنظمة التي تدعى الديمقراطية إلاَّ دليل على أنها ليست ديمقراطية... ليس لسلطة الشعب إلاَّ وجه واحد، ولا يمكن تحقيق السلطة الشعبية إلاَّ بكيفية واحدة.. وهي المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية..».

أولاً يقسم الشعب إلى مؤتمرات شعبية اساسية ويختار كل مؤتمر امانة له، ومن مجموع امانات المؤتمرات تتكون مؤتمرات شعبية غير الاساسية.. ثم تختار جماهير تلك المؤتمرات الشعبية الاساسية لجاناً شعبية ادارية لتحل محل الادارة الحكومية، فتصبح كل المرافق في المجتمع تدار بواسطة لجان شعبية،

وتصير اللجان الشعبية التي تدير المرافق مسئولة أمام المؤتمرات الشعبية الاساسية التي تملى عليها السياسة وتراقبها في تنفيذ تلك السياسة، وبهذا تصبح الادارة شعبية والرقابة شعبية، وينتهي التعريف البالي للديمقراطية الذى يقول «الديمقراطية هي رقابة الشعب على الحكومة» محله التعريف الصحيح وهو «الديمقراطية هي رقابة الشعب على نفسه». وبذلك يتجاوز القذافي مفهوم المؤسسات لسانت جوست، لأن نظام رقابة القذافي لا تسمح بوجود الفساد الخفي حيث أن فضائل المواطن المنشودة لم تصل بعد إلى درجة صلبة.

ويضيف القذافي في كتابه الأخضر ما يلي:

«إن المواطنين جميعاً الذين هم اعضاء تلك المؤتمرات الشعبية ينتمون وظيفياً أو مهنياً إلى فئات مختلفة.. مثال العمال، والفلاحين، الطلاب، التجار، الحرفيين، الموظفين، والاساتذة.

لذا عليهم أن يشكلوا مؤتمرات شعبية مهنية خاصة بهم علاوة على كونهم مواطنين اعضاء في المؤتمرات الشعبية الاساسية أو اللجان الشعبية.

إن ما تتناوله المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية يرسم في صورته النهائية في مؤتمر الشعب العام، الذي تلتقي فيه امانات المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية، وإن ما يصيغه مؤتمر الشعب العام الذى يجتمع دورياً أو سنوياً يطرح بالتالي على المؤتمرات الشعبية **واللجان الشعبية** ليبدأ التنفيذ من قبل اللجان الشعبية المسئولة أمام المؤتمرات الشعبية الاساسية.

إن مؤتمر الشعب العام ليس مجموع اعضاء أو اشخاص طبيعين **كالمجالس النيابية إنه لقاء المؤتمرات الاساسية وأعضاء اللجان الشعبية.**

بذلك تنحل مشكلة أداة الحكم بداهة وتنتهي الادوات الدكتاتورية ويصبح الشعب هو أداة الحكم، وتحل نهائياً معضلة الديمقراطية في العالم.

أى اصلاح مهما كان مقنعٌ وواعدٌ بالنجاح يبعث في نفس الوقت على التفكير والشك.

وهكذا يسأل المرء نفسه، هل يصلح نظام المؤتمرات الشعبية لدول ذات مساحات شاسعة وشعوب تتكون من مئات الملايين من البشر؟.

ـ العقيد القذافي يجب بنعم على هذا التساؤل.

هل يعتمد مؤسس الجماهيرية على تفائله فقط، أو على مثال حسابي بسيط، وهل الاسلوب يجب أن يكون هو نفسه في شعب مكون من 3 مليون وأخر من 300 مليون نسمة؟.

معمر القذافي يعتقد بنظريته العالمية الثالثة، ويثق في نفسه والا لما استطاع وعمره 27 سنة تحقيق ما كان يتصوره وهو في السابعة عشر من العمر: تحويل الدولة الاقطاعية الليبية إلى ديمقراطية شعبية، وهكذا ينتهي الفصل الأول من الكتاب الأخضر بنبرة أمل:

وأخيراً إن عصر الجماهير وهو يزحف حثيثاً نحونا بعد عصر الجمهوريات يلهب المشاعر، ويبهر الابصار ولكنه يقدر ما يبشر به من حرية حقيقية للجماهير وانعتاق سعيد من قيود ادوات الحكم. فهو ينذر بمجيء عصر الفوضى والغوغائية من بعده..

لا سيـد ولا عبـد

لا سيد ولا عبد

لو حاولنا أن نقابل بين سانت جوست ومعمر القذافي في مجال الخدمة والأجرة، الحاجة والملكية، لما وجدنا مجالاً للمقارنة، ومع هذا فإنه رغم اختلاف المعطيات الزمنية، يبقى تقارب هذين الثوريين معلوماً في تصورهما لمثالية العالم. لأن هذه المثالية ليست منبثقة من الاعتقاد في معطيات العالم الحسي، ولكنها بكل بساطة هي السعادة.. التي تعنى شعور كل فرد وكل الشعوب في كل الأزمان بالمساواة في حق الحياة على اعتبار أن هذه المساواة حق طبيعي بغض النظر عن إمكانات كل فرد وقدراته.

ونظراً لأن يوم الوعد الأكبر لم يأت بعد، فإن سانت جوست يقول بحذر «من النادر أن تجعل شعباً سعيداً أو أن تحميه من التعاسة».

وعلى العكس نجد العقيد القذافي ينطلق من مفهوم السعادة مباشرة على أنها الرخاء والحرية حيث يقول في الكتاب الأخضر، إن هدف المجتمع الاشتراكي الجديد هو إيجاد مجتمع سعيد لأنه حر. ويتحقق هذا الهدف بتحرير الحاجات المادية والمعنوية للإنسان، ويكون اشباع هذه الحاجات بدون استغلال أو استعباد للآخرين، وإلا فإنها تتناقض مع أهداف المجتمع الاشتراكي. وعلى الإنسان أن يعمل بنفسه، وتحرر الفرد من كل سلطة هو الشرط لهذه السعادة التي لم يحققها أى نظام اجتماعي كمساواة حتى يومنا هذا.

وكذلك الحال في «مؤسسات» سان جوست لا يجوز أن يكون هناك سيد

ولا عبد ، ويرى علاقة الخدمة على أنها «عقد مقدس بين الذى يعمل والذى يدفع».

هذا القول جميل وإنساني، ولكنه مجرد عبارات لا وجود لها في الواقع المتغير، حقاً إن المؤجر والأجير هما شخصان متعاقدان، ولكن هذا لا يعنى أنهما متساويان في الحقوق، لأن الذى يدفع يحتفظ دائماً بالحق لنفسه في إملاء شروطه على الأجير ومراقبته لإنتاجه. والخطوة المتقدمة في هذا التصور (لسانت جوست) هو أن العامل بغض النظر عن علاقة العبودية القائمة فإنه أصبح من حقه أن يكون مواطناً حر، وهذا ما لم يكن معهوداً قبل ثورة 1789 ومع هذا فإن المتعاقدين أى المؤجر والأجير رغم أنه لم تعد تحكمهما علاقة السيد ـ العبد، فإنهما لايزالآن اجتماعياً في مستويين مختلفين.

البطالة حسب رأى سانت جوست تستحق العقوبة وفي الفقرة الرابعة من مؤسساته يقول:

«على الجميع أن يعملوا على أساس الاحترام المتبادل».

الاحترام المتبادل حسب نظره فضيلة ضرورية وهي شرط الرخاء العام والحرية الفردية.

«إن من يفتقد الاحترام، هو الذى لا يحترم نفسه.. واليوم الذى يبعد فيه الاحترام ويُشهَّر بالفضيلة، فإن الحرية نفسها ستختفى والويل للشعوب التي تكون سلطتها وقوانينها ضعيفة بحيث تفقد العمل والحرية.

ومثل هذه التصورات تتكرر دائماً في ملاحظاته وأحاديثه العامة لأنه من واجب الدولة أن توفر للمواطن العمل الذى هو من حقه، وعليها أيضاً أن لا تحترم إلا الذى يعمل.

يبحث سانت جوست عن هذه المبادىء للحقوق والواجبات من أجل غرسها في نفوس المقننين والمواطنين لكى لاتخسر الثورة هدفها الحقيقي ألا وهو بناء جمهورية شعبية ثابتة وبمالها من نظام اشتراكي غير قابل للسقوط.

ومع هذا فإن العمل لا يمكن توفيره لكل من يرغب في العمل، وكذلك الحال بالنسبة للاحترام فهو في الحاضر كما هو في الماضى لا يتم إلا للذين لهم

عطاء. وإلى جانب هؤلاء الموسورين يوجد في العادة الكثير من الفقراء الذين هم قد توجد لديهم بطاقة المواطنة وقد يسمح لهم بأن يتكلموا كما يشاؤون وأن يزينوا أنفسهم بـربـاط العنق الأبيض والأحمـر، ومع هـذا فإنهم لا يحتـرمون ويعتبرون من الذين يقومون بالأعمال الحقيرة.

وكذلك عندما يطالب سانت جوست على سبيل المثال بأكل أفراد الأسرة الواحدة على مائدة واحدة من أجل إبعاد السيادة، فإنه بهذه المطالبة لم يفعل شيئاً سوى تطبيق ما كان متعارفاً عليه قديماً في القرى، لأنه حينما يتناول فلاح غني وجبة غذائه مع الخادم والخادمة فإن ذلك لا يعني المساواة أو المشاركة في الرأى. ويبقى الفلاح هو السيد رغم معاملته الحسنة للطاهي ومربي الخيـول وتأتى هذه المعاملة الحسنة بسبب حاجته إليهم، ولكنه لا يحترمهم ولا يعطيهم الكلمة وابداء الرأى في شراء الأبقار أو أجهزة جديدة، لأن مثل هذا الحق لا يتجاوز الزوجة أو الابن الكبير.

وتعاملنا في العصر الحديث لم يتغير عما كان عليه الأمر، فعندما يحمل الشاب الصغير ملفاً من قسم إلى آخر كشريك في العمل وليس كخادم،. فإنه مـع ذلك لا يستـطيع أن يكـون من الذين يقـررون، ولا يحق له ذلـك على الإطلاق، لأنه ليس من حقه أن يوقع العقود مثل المدير، أو أن يقرر الميزانية كما تفعل المحاسبة صاحبة الشأن.

إن الفقرة 3 من حقوق الإنسان لدستور الثورة الفرنسية 1793 تقول: «كل الناس بطبيعتهم متساوون وأن كل المواطنين متكافئو الفرص من أجل الحصول على وظائف والشعوب الحرة لا تعترف بالمفاضلة في الاختيار سوى الفضيلة والموهبة.»

وفي إطار هذه المفاضلة النوعية تقع حدود المساواة المطلقة والتي يجب أن تكون للدولة الممثلة كسلطة الشعب والدعاية المتطرفة تريد أن تشوّه صورة الثورة وعلى سبيل المثال دخل فـريق من الثوريين مكتب إدارة لشـركة كبيـرة وانتزعوه من كرسيه قائلين له: إن هذا المكان سيستلمه الشخص الذي يقـوم بتنـظيفه، وإمـا أنت فقد أصبحت منـذ الآن بمثابـة أداة الكنس التي تستلمها الأيادى.

وبمثل هذا الوصف يريد الأعداء غرس الانطباع على أنه لايهم الثوريين سوى رفع مستوى رجل الشارع إلى أعلى درجة، ولكن هذه الرغبة التي تمثل رغبة المعذبين في الأرض ما هي إلاّ مطلب قديم يعبر عن رد الفعل الطبيعي للمقهورين، وهذا يعني أن المعيار الوحيد لقيادة الثورة من الموظفين والاقتصاديين وغيرهم يعتمد أولاً وأخيراً على الانتقام. . وبهذا العمل تتضرر الثورة نفسها وتصبح في خطر، لأنها بمثل هذا التصرف ستضع نوعية العمل والرخاء موضع السؤال. وبالطبع للدولة الشعبية الحق في استبدال القياديين والعاملين بغيرهم. ولكن من واجبها أن تختار المثقفين والمتخصصين ليتمكنوا من أداء واجبهم في الدولة الجديدة على الوجه الأكمل.

وبسبب اختلاف ميادين العمل فإن الثورة الاشتراكية لا تقدم حلاً للمساواة التامة وذلك عندما تريد إيجاد دولة متميزة بحيث يحتل ذوى القدرات القيادية مكانهم المناسب في العمل وينالون التقدير الملائم، وعلى سبيل المثال فإن المهندس الموهوب الذي يخترع آلة للتقدم الاقتصادي تجعل المجتمع في حالة رخاء، فإنه يجب أن ينال درجة أرفع من الميكانيكي الذي يقوم بتنظيف هذه الآلة. وكذلك الجراح الذي استغرق فترة طويلة في دراسته ليقوم بعمليات جراحية تنقذ حياة المرضى. فإن عمله أرفع من عمل الممرض الذي يقوم ويهيىء السرير للمريض، وطبقاً لذلك فإن الأجرة لا يمكن توحيدها ومن الطبيعي أن يستحق العامل ذى الإنتاج المتوسط أجرة أقل من ذى الإنتاج العالى أو الذى يقوم بعمل خطير.

ومع هذا فإن التعليم وبناء الإنسان وكذلك القدرات والمواهب حسب الفقرة 5 من حقوق الإنسان لا علاقة له بقيمة الإنسان في حد ذاته كإنسان مخلوق ذو شخصية متميزة.

إن احترام الإنسان للإنسان عند سانت جوست يتطلب رفع الفوارق في المنافع الحياتية المتعلقة بالمعرفة والتدريب بالنسبة للكائن الحي بماله من إحساس وحاجات متساوية، وعليه فإن القلة الموهوبة بمالها من ملكات كالفهم والمهارة ما هي إلا قطرات صغيرة في نهر قدرات المجتمع الكبير.

وفي عصر سانت جوست لم يكن هناك تصور عن التخصصات المتعددة

وطرق العمل والتقنية كما في عصر مجتمعنا الصناعي. وكان المجتمع يتكون من الفلاحين والتجار والحرفيين، كما كانت توجد وظائف عقلية أخرى مثل المحامين والقانونيين والناشرين والفنانين. أما بالنسبة للاجور فإنها تدفع للموظفين وكتبة الدولة. وكذلك بالنسبة للمحاسبين وعمال الفنادق وكذلك العمال في المدن الكبرى أى عمال المصانع. ولكن إنتاج هذه المدن الكبرى لم يكن على مستوى إنتاج مدن هذا العصر، وكذلك لم توجد الوظائف الأخرى التي تقتضيها الحاجات المادية والنفسية للشباب.

ولهذا السبب لا نعجب من تصور سانت جوست الذى يرى أن الإنسان خلق من أجل الزراعة والعسكرية، وكان لا ينسى القضاء بمعناه الإنساني بين الحاكم والمحكوم والسيد والخادم ولم يجد حلاً للشعور بالرجولة إلاّ من خلال التصور للخدمة العسكرية كواجب وطني أو الفلاحة في الحقل كأساس أولي لوجود الإنسان وباختصار السيف والمحراث.

وفي المؤسسات رسم سانت جوست صورة مثالية حيث يرى أن كل مواطن يملك قطعة أرض بحيث يقوم بفلاحتها ما بين سني 25 ـ 50 لكى يكوّن الفرد نفسه بنفسه. والفلاح الذي يصبح مستقبلاً لا يطالب بدفع الضرائب على الأرض، لأن امتلاك الأراضي الشاسعة قد انتهى، ولكن الإنتاج كما في تربية المواشى وزراعة الحبوب والخضروات فإن هذا الإنتاج يخضع للمراقبة. وعلي سبيل المثال فإن على الفلاح أن يربي عدداً معيناً من الأغنام على قطعة أرض محددة، وهذا النظام يختلف عن النظام الجماعي في الاتحاد السوفييتي، حيث يرى سانت جوست ان الفلاح له أن يملك بيته الخاص ومبنى الفلاحه وغيرها. وهو غير مطالب ببيع محصوله للدولة بالكامل وبأسعار ثابتة إنه ملزم فقط بالعمل وعدم تركه للأصطبل فارغاً بدون حيوانات وكذلك عليه أن لايترك الأرض وعليه أن لا يترك الخضروات تفسد. وكل الإنتاج الذي له حرية التصرف في بيعه يجب أن يضاف إلى تغذية المواطنين وكذلك هو وأسرته. لأن كل فلاح له زوجة صادقة وأبناء أقوياء وأصحاء ومن المشوق أن نتتبع حلم سانت جوست لنرى كيف يتصور التركيبة الاجتماعية للمدن الكبيرة. هناك كان الرجال والنساء

يعيشون من مختلف الطبقات في مكان واحد. ويقومون بوظائف متعددة بدون أن يكون لهم أمل في حياة طبيعية وصحية.

ومن بين الفقراء من يبذل جهده وطاقاته في الورش والمصانع من أجل الحصول على قوت يومه وهذا ما يحتقره سانت جوست الذى ولد على أعتاب المشاكل الاجتماعية التي لن يجد لها حلاً ولو عاش فترة طويلة.

«إن ما احتاجه لسعادتى هو كوخ صغير وزوجة تقية وبعض الكتب.. وكل ما عدا ذلك مما أملكه، فإنى سأهبه لذوى الحاجة من أصدقائي».

ولكن ما هي الكنوز التي يملكها سانت جوست وهي في نفس الوقت زائدة عن حاجته؟ إنها أشياء لا قيمة لها في الواقع مثل سلسلة قديمة من النحاس، منديل رقبة حريرى، محفظة جلدية بها بعض الدراهم وإلى جانب كتبه بعض أدوات الكتابة وبعض الملابس، وهذا ما كان لديه عندما أعدم مع آخرين بسرعة ودفن بدون مراسم، وبقيت «سعادة البيت الصغير» ومع زوجة لطيفة ـ مجرد حلم.

معمر القذافي كان له في حد ذاته أن يكتفي بحياته مع كتبه وكتاباته في خيمته لو أنه لم يقم بالثورة ليحرر شعبه من مظالم حاجاته والتي اختلقها له النظام السابق. وفي الجزء الثاني من الكتاب الأخضر الذي تناول حل المشكل الاقتصادي، يتحدث عن الحاجات المتعددة ولم يقتصر الحديث عن الحاجات الضرورية الحياتية بل تناول أيضاً حاجة الفرد إلى المشاركة في الإنتاج وفي هذا الصدد يرى القذافي بأن الأجير لا يصل على الإطلاق إلى تذوق معنى الحرية..

«إن حرية الإنسان ناقصة إذا ما تحكم آخر في حاجته، فالحاجة قد تؤدي إلى استعباد إنسان لإنسان والاستغلال سببه الحاجة فالحاجة مشكل حقيقي والصراع ينشأ من تحكم جهة ما في حاجات الإنسان.

الأُجرة حسب تصور القذافي لا تعطى دافعاً قوياً للإنتاج قبل ما نجده في إطار المشاركة وعليه فان نظام الأجرة يوقع الضرر بالنسبة للإنتاج. إن المشاركة في الإنتاج والربح تزيد من القدرة على العمل لأن ذلك سيؤدى إلى التحرر من الحاجات الخاصة واشباعها».

في فترة 175 سنة التي تمتد ما بين حياة سانت جوست ومعمر القذافي تبدلت الحاجات بصورة كبيرة ولم تعد مقصورة على الحاجات الاجتماعية. إن طاهى أحد الارستقراطيين في عصر سانت جوست يسمح له بالسكن في حجرة الخدم بالقصر، وربما يمنحه سيده ثوباً بمناسبة عيد ميلاد المسيح، وهذا هو كل ما هنالك، ولكن ليس من حقه أن يتجاوز حدود مستواه، وبالمقابل نجد سائق سيارة المدير العام في يومنا هذا يستطيع أن يوفر أثاث منزله وأن يحجز لقضاء عطلته السنوية.

وهذه الأمثلة وما في حكمها تدل على تطور شروط الحياة إلى ما هو أفضل بعد صراع دام قرابة مائتى سنة ومع هذا فإن العقيد القذافي يعتقد بأن هذا التطور محدود فيقول:

«رغم كل هذه التطورات التي لا يستهان بها في تاريخ المشكل الاقتصادي إلاّ أن المشكلة لازالت قائمة جذرياً مع كل التعليمات والتحسينات والتهذيبات والإجراءات والتطورات التى طرأت عليها والتي جعلتها أقل حدة من القرون الماضية وحققت مصالح كثيرة للعاملين الا أن المشكل الاقتصادي لم يحل بعد في العالم فالمحاولات التي انصبت على الملكية لم تحل مشكلة المنتجين فلا يزالون أجراء رغم انتقال الملكية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار».

إن نظرية القذافي تقول الذي ينتج هو الذي يستهلك ولا يعني بالإنتاج ما يقوم به المقاولون ـ أفراداً وجماعات ـ بل الذي ينتجه العامل بيده والذى يكون شريكاً في إنتاجه بدل أن يتقاضى أجرة عشوائية نظير عمله وبهذا تضع «الاشتراكية الطبيعية» حداً لاستغلال الإنسان للإنسان فوق الأرض، لأن القذافي يرى بأن العمال في عصرنا هذا ما هم إلاّ عبيد مهما تحسنت أجورهم. وبغض النظر عن الحاجات الضرورية، فإن الحاجات المعنوية والمادية تختلف باختلاف الأفراد، إن الشخص الذي يعيش حياة قوية من الناحية الروحية والنفسية، يستطيع أن يتحمل قصور الحاجات المادية بصورة أفضل من الذى تنقصه الحياة الروحية الذي يبحث عن البديل في الملكية أو المتعة الحسية.

لقد كانت حياة سانت جوست تاريخية لأن عظمة الإنسانية كانت تملأ

حياته مكتفياً بحجرة بسيطة في الفندق ومع هذا فإنه لا يتخذ من حياته نموذجاً للتعبير عن حاجات مواطني دولة المستقبل، وكذلك الحال بالنسبة لمعمر القذافي، القائد العظيم غالباً ما تكون حياته بسيطة وبدون مقارنة مع الآخرين بينما يطمح أن يعيش شعبه في حالة جيدة.

إن العبارة المشهورة «الملكية سرقة» والتي تبنتها الماركسية كتبها أحد المعتدلين في الثورة الفرنسية إما بريسور Brissot أو كوندورسي condorcet بينما المتطرف سانت جوست لم يرفض الملكية الخاصة عندما تتم عن طريق بذل الجهد وعدم استلاب الآخرين. وفي جمهورية أحلامه يقرر بأنه يجب الا يكون هناك الغنى الفاحش أو الفقر المذقع ومع هذا فإن فوارق الملكية أمر مسلم به.

وفي مؤسساته فقرة رقم 10 الفصل المتعلق بالثبات يطرح سانت جوست تصوراً من نوعية خاصة:

«في الأول من شهر فلوريال floriel (ابريل) من كل سنة يحدد سكان قرية ما في معبدهم رجلاً صغير السن ويكون غنياً وعلى خلق وبدون عيوب جسمانية وتكون سنه بين 21 إلى 30 سنة وذلك ليختار زوجة فقيرة ثم يتزوجها ومثل هذا العمل ما هو إلا رمز للمساواة بين الناس.

وهنا يتميز الخيال الشعرى للسياسي والمقنن عندما ينظم الزواج الحكومى في «شهر الزهور» والذى يقع حسب التقويم المسيحي بين 20 ابريل، 20 مايو. وللوهلة الأولى كما في رواية نهاية السعادة نجد أن التأمل لمثل هذه الحادثة يعطى معنى آخر أبعد لمعنى المساواة بين الناس وذلك حينما يعيده 80 بلدية بفرنسا بمالها من محلات سنة بعد سنة، وبهذه الطريقة يتم زواج الآلاف في السنة الواحدة بحيث يدمج الفقير مع الغني مع الحفاظ على أملاك الأغنياء، ويرى سانت جوست أن هذا هو طريق السعادة الشخصية لأن مثل هذا التوجّه الحكومي لاختيار الزوج والزوجة المشروط بالصحة والصفو هو الطريق الصحيح للاختيار في الزواج.

وهذه التفاصيل عن الأسرة في فكر سانت جوست وإن كانت غير معروفة للقذافي فإنه كان في الإمكان أن تكون من بنات أفكار القذافي، إن الفتاة التي

لاتملك للزواج إلاَّ الجمال والقيم وهي في نفس الوقت لعوامل إنسانية تتمكن من زواج يسعدها مادياً لجديرة بأن يقام لها احتفال شعبي.

يذكرنا القذافي بقوله «لا حرية لشعب يأكل من وراء حدوده» بما يرد في مؤسسات سانت جوست بخصوص البرنامج الزراعي الذي يهتم به على وجه الخصوص.

وعلى المعرفة الصحيحة يقوم البرنامج الكبير للقذافي في توظيف الثروة الأرضية والخبرة التي حصل عليها الشعب خلال تسع عشرة سنة من بداية ثورة الفاتح. ورغم الاستقلال الظاهري قبل الثورة لليبيا فإنها ظلت دولة نامية ولم تستطع أن تغذى شعبها وتكفيه بالضروريات، وكان سعر النفط البخيس يصب في الخزائن المالية في الداخل والخارج. ومنذ أن تبدلت الدولة إلى جمهورية أصبح جزءٌ كبيراً من ثمن النفط يوظف في تعمير الأراضى الزراعية وتدريب الأيدي العاملة.

الماء الذي هو أصل الحياة في كل شيء والذى ينبت الأرض أصبح بفعل التقنية يضخ في الأراضي التي تعوزها المياه. وهكذا تحوّل الشريط الصحراوي العريض إلى أراضي خضراء مزروعة بالخضروات والفواكه أو المراعي للأبقار والأغنام واعدت المزارع الكبيرة لتسمين الدواجن مزودة بأحدث المعدات، وقد صحب كل ذلك تطور نوعى مما كان سبباً في انخفاض البضائع الاستهلاكية الموردة من الخارج وذلك بفعل الثورة.

حلت مشكلة ملكية الأراضي في الكتاب الأخضر بطريقة بعيدة عن التصورات النظرية حيث يقول الكتاب الأخضر: «الارض ليست ملكاً لأحد». ولكن يحق لكل واحد استغلالها للانتفاع بها شغلاً وزراعة ورعياً مدى حياته وحياة ورثته في حدود جهده الخاص دون استخدام غيره بأجر أو بدونه وفي حدود إشباع حاجاته».

وفي الجماهيرية تملك كل أسرة بيت، وليس من حق أحد أن يملك بيتاً آخر ليؤجره لأن ذلك يكون نوعاً من تكدس المال الذي يتجاوز الحاجات البشرية المتمثلة في السكن والدخل والمركوب. إن السكن والمركوب حسب

وجهة نظر الكتاب الأخضر حاجات طبيعية للفرد الليبي التي يوفرها له الضمان الاجتماعي وكذلك الحال بالنسبة للدخل الضروري، أما الذي يملك بيتاً للإيجار أو سيارة زائدة عن مركوبه، فانه يملك دخلاً لا يمكن مراقبته، وهذه الثروة هي التي تسبب التفاوت بين المواطنين كما أنها في حد ذاتها سرقة للشعب.

الدولة الليبية تحترم الملكية الخاصة ولا يهمها كمية النقود التي يوفرها الفرد في الشهر أو التي يحصل عليها من عرق جبينه، وكذلك لا يهمها كمية ونوع الملابس التي تمكلها المرأة، ولكن المهم هو أن يكون الحصول على مثل هذه النقود والأشياء ذات القيمة العالية قد حصل بطريقٍ مشروع وليس عن طريق السرقة أو العمل في الظلام بل يجب أن توظف كما في ملكية الأرض بحيث تخدم الحاجات، وعلى هذا النحو ستكون ثروة الفرد لا تجعله يصبح رأسمالياً.

يقول سانت جوست في الفقرة 13 من مؤسساته «على كل مواطن أن يبين سنوياً بصورة علنية قيمة استهلاكه، ولا أحد يستطيع أن يقف في طريقه بخصوص استهلاكه واستعماله لأملاكه طالما أنه لم يتسبب في خسارة أى شخص آخر.»

إن الأمر ليس كما يدعى المتطرفون بأنه كلما قامت ثورة اشتراكية فإنه ستقوم دولتها بمراقبة الملكية الفردية صغيرها وكبيرها، وفي حالة انتقال المجتمع إلى النظام الجديد فإن الاقتصاد سيمر مع ممر ضيق خاصة وإن لم يحسب حساب المواقف الضرورية.

إن ما يرجح أهداف الدولة والفرد هو أمل كل حركة شعبية ولكن ليس بالضرورة أن تملك كل حركة المنهج الصحيح والموصل إلى الهدف. ولهذا السبب نجد أصحاب الأهداف القوية قد يصلون إلى طريق مسدود بسبب عدم الخبرة وتكرار الأخطاء القديمة.

إن دولة سانت جوست كما يتصورها يجب أن لا تقع في الأخطاء المتكررة كان تحوّل الغني إلى فقير والفقير إلى غني. حيث عرف سانت جوست أن هذا التنظيم لثروة المجتمع سيؤدي إلى نشر الحسد والأنانية بدل العدالة في

التوزيع. ورغم معرفة سانت جوست النظرية فإن وقع من الناحية التطبيقية في أخطاء كبيرة. فإن دولة بها ملايين البشر ومن بينهم الرجعيين لا يمكن اقناعهم بالمشاركة بدل العمالة القائمة على الأجرة. وكذلك فان هذا النظام في ذاك الوقت لم يقم على دراسة العلاقة بين الحاجات والإنتاج أو دراسة المشاكل الاقتصادية الأخرى.

إن قائد الثورة القذافي استطاع أن يحل اشكالية الانفصام بين الحرية والواجب بطريق تركيبية أذابت هذه المفارقات حيث يعتقد القذافي في القاعدة كل المواطنين الليبيين بمالهم من طاقات وإمكانات توظف كخدمة وطنية كما يتطابق وقدراتهم مع دخلهم، ولكن هذا لا يعني أنهم عبيد للدولة بل حقهم في الحياة مضمون وكذلك حريتهم. ولم ينحرف القذافي قط عن هذا الاتجاه، ولا أدل على ذلك من نجاح العلاقات الاقتصادية.

في مدة 19 سنة (أى منذ قيام الثورة حتى الآن) كتب العديد عن هذه الثورة وقائدها وذلك في صورة مقالات وكليشهات ودراسات بل واطروحات الدكتوراة، وكتبت شخصيات اكاديمية علمية عن البلد والأرض ومع هذا فإنه بغض النظر عن المجموعات المفسدة للنظرية نجد الأفكار الجيدة لمعمر القذافي غير معروفة حتى الآن، وقد قرأ هو نفسه عن الآخرين أكثر مما كتبوا عنه. إن حلّه النموذجى للمشكل الاقتصادى الذي يشترط في العمل المشاركة واتخاذ القرار، لم يكن مجرد دعاية بل مطبق كحقيقة في الجماهيرية، وبالطبع يعرف هذا التجسيد للحل الاقتصادي الكثير من الاشتراكيين والسياسيين المتعاطفين مع ليبيا، ولكن الباقي لا يرى في القذافي الا المحرض على العصيان والمتعاطف مع المنظمات المتطرفة. ومع أن البعض يرفض آراءه إلا أنه يحاول أن يعرف من خلال التقارير الحساسة ماذا يريد أن يفعل القذافي بماذا يهدد أو ما الذي يريد أن يفعله؟ وهناك البعض يتعرفون عن القذافي من خلال المقابلات فيما يتعلق بكتابه وفيما يتعلق أيضاً بالتفاصيل الأخرى.

ولكن هذه جميعاً ليست معمر القذافي الثائر كما هو على حقيقته. وكما هو الحال بالنسبة لمؤسس الاشتراكية من خلال الكتاب الأخضر حيث يحاول البعض إظهار السلبيات بدل الإيجابيات فإننا نجد نفس الأمر بالنسبة لصاحب

«مؤسسات الجمهورية» سانت جوست. وبدلاً من الاهتمام بقضايا الجوع والهيمنة والاستعمار نجد ما يثيره البعض هو أشياء أخرى مثل قتل الملك أو إلقاء القنابل أو اختطاف الطائرات وما إلى ذلك. إن مثل هؤلاء المغرضين مثل الذى يطحن الصور لتذروها رياح الدعاية وتعممها على عامة الشعب وبمثل هذه المغالطات يصبح عمل الإنسان الذى يدعو لحرية وسعادة الشعب غير مقبول.

الأسرة أهم من الدولة

الأسرة أهم من الدولة

يعتقد سانت جوست في المواطنين الذين يعبرون عن الثورة بقوة حواسهم وإظهار إحساسهم، بأنهم يخفون بذلك فتور قناعاتهم الباطنية وقد عبَّر عن ذلك بمرارة في قوله:

«الثورة انطلقت، والمبادىء ضعفت، ولم يبق سوى الملاليم الحمراء..».

ولكن الوقت لم يحن بعد للعمل الجيد وفي الفقرة رقم 3 من مؤسسات الجمهورية يؤكد الحظ السيىء والمعمم في ضخامته بحيث يكفى لسحق الآراء العامة، وهذا بدوره يؤدى في النهاية إلى المطالبة بتجنب الأخطاء العامة.

أما الكارثة الوطنية التي يتصورها أيضاً هي قيادة فرنسا لحروب مواجهة وصعبة، خاصة فيما يتعلق بالإمدادات. وإذا كان لم يعبر عن ذلك بصورة مباشرة، ولكنه كان يعتقد بأن شيئاً ما سيحدث وليفتح المواطن عينيه لكى يتحقق هو بنفسه من أن التعبير النفسي للفرنسيين لم يتم وأن هدف الثورة لم يتحقق. إن القضاء على الملكية وانتزاع السلطة من الارستقراطيين والاكليرس والنداء لكل القادرين على رفع راية الثورة، كل هذا يعد نجاح سياسي، ولكنه لم يصل إلى القضاء على العادات السيئة وعلى الفساد المنتشر في الحياة العامة، وحسب رأى سانت جوست أن الفساد منتشر بدرجة جعلت الدولة والإدارة لم يقدرا على

أداء مهمتهما «القيادى ليس شعبيا» وصاحب القيم يفضل في الأوساط الشعبية من القيادي.

وبعد أن رفض سانت جوست الملك الاعتراف بحق الملك في المواطنة، ذهب إلى أبعد من ذلك وهو فصل الموظفين عن المواطنين، وبهذا لم يقسم الفرنسيين إلى مواطنين سيئين وجيدين فحسب بل إلى مواطنين وغير مواطنين وهذا العمل غير ديمقراطي بل هو نكوص إلى عدم المساواة، لأن ما هو صحيح هو أن جهاز الإدراة في خدمة المواطن وليس العكس وبهذا يكون الموظف مجرد حام للقانون والنظام بما يخدم الأفراد وهو الأمر الذي يجب أن يحترم، ولكن على الموظف أن يزاول وظيفته بأمانة.

لم يعرف سانت جوست ما يراه قائد الثورة الليبية (مراقبة الشعب لنفسه) ولكن في مؤسسات جمهورية المستقبل توجد المساءلة التي تواجه بها الإدارة وموظفيها. ويتم اختيار القضاة من الشعب أى من الذين ليست لهم وظائف وممن هم ينالون احترام الجميع.

«إن الرجال الذين يقودون حياتهم بدون أخطاء هم الذين حينما تبلغ أعمارهم 60 سنة يحملون الوشاح الأبيض «الشارة البيضاء». ويدعون إلى حضور احتفال الكبار للاحتفاء بهم، وفي حالة عدم وجود أحد المعارضين لهم يمنحون هذا الوشاح الأبيض».

وهنا نجد عند «رئيس أساقفة الثورة» سذاجة الحلم، بعيداً عن القوة والإرهاب، والذى يحاول بعض المؤرخين أن يصفوه بذلك. ويرى في هذه الأوشحة البيضاء نوعاً من التقدير الذي يضاهي تقدير الشجعان في الجيش المنتصر على الأعداء حينما يعطون أوسمة، وهذا القياس مع الفارق حيث إنه ليس من العار أن يوجد جندي أو صاحب رتبة بدون وسام وذلك حينما لا يكون متميزاً في شجاعته أو تضحيته، إلا أن الوشاح الأبيض يتسبب في مشكلة لمن لا يسمح له بحمله. إذ لا يحق له إبداء رأيه في الأمور المهمة لأنه يكون كالأخرس، وفي الحالات الأخرى يشهر به على أنه كائن لا أخلاقي، وهذا الأمر لا يقتصر فقط على المجرمين أو المدمنين أو الملاحقين للنساء الذين هم أيضاً حسب تصور سانت جوست لا يمنحون الشارات البيضاء.

وإذا كانت هذه الأمور تظهر لنا اليوم بأنها مضحكة، فإنه لا يخفى علينا الدور الذي تلعبه من وراء الستار، ويتمثل هذا الدور في احترام كل المواطنين الذين احتفظوا بكرامتهم حتى اصبحوا رمادي الشعر. ويقول سانت جوست بهذا الصدد «إن احترام الكبار ما هو إلاّ قيمة حضارية في بلادنا».

وحينما لا نجد في الكتاب الأخضر تقديراً لكبار السن، فإنه من المعروف في تقاليد العرب كيف يكنّون كل تقدير واحترام للوالدين وخير مثال على ذلك معمر القذافي نفسه.

ولكن لماذا لم يقرر سانت جوست اشارة بيضاء للمرأة الشريفة؟ ولعله يهدف من وراء ذلك إلى أن موضوع القيم ينتابه الغموض بالنسبة للمرأة خاصة وأنه يؤمن بأن الفضيلة هى الشرط الأساسي، ولكي تتحقق الفضيلة يشترط سانت جوست لحضور المرأة صغيرة السن للأماكن العامة بصحبة أبويها أو أقاربها.

يختار الشعب المراقبين في كل قرية من الذين هم أكبر سناً من ذوي الأوشحة البيضاء وعلى أكبرهم سناً أن يدلى برأيه كل عشرة أيام بالنسبة لذوي الفعاليات وكذلك الأمر بالنسبة لمن بلغت سنهم 21 سنة. وهؤلاء الصغار في السن يجمعون في المعبد من أجل مساءلتهم بخصوص استهلاكهم لدخلهم وكيفية اختيارهم لأصدقائهم.

ويقتصر أمر المساءلة هنا عند سانت جوست على الرجل دون المرأة، ولا حديث عن صداقة المرأة في المعبد، بل على المرأة أن تهتم ببيتها إلى جانب زوجها وأولادها، وعلى العكس فإنه يجب أن يكون للرجل أصدقاءه إلى جانب أعباء أسرته، والأصدقاء هم المكملون لحلقة الحياة عند الرجل. ويقول سانت جوست بهذا الصدد: كل رجل بلغ 21 سنة عليه أن يذكر في المعبد من هم أصدقاؤه، ويتم ذلك سنوياً في شهر «فنتور» وعندما يتخلى رجل ما عن صديق له، فعليه أن يذكر السبب، وإذا ما رفض ذلك فإن عقوبته النفي، وكذلك الذى لا يعتقد في الصداقة أو ليس له صديق يعاقب بالنفي، أما الأفراد الذين تربطهم علاقة صداقة دائمة فإنه يجب أن يتم دفنهم في قبر واحد بعد الموت. وفي حالة ما يقدم شخص ما على جريمة معينة، فإنه من واجب أصدقائه أن ينبذوه.

عرف سانت جوست في التصوف اليوناني القديم وكذلك التصوف الألماني إن شرف القرية يعتمد على كفارة العشيرة لأفرادها.

إن مُشرِّع قوانين الصغار يضع أمام الكبار واجبات متعددة، حقاً إن حرية الشعب لا تمس الحياة الخاصة، ومع هذا فإنه على كبار السن أن يقوموا بدور الشرطة السرية لمراقبة المواطنين.

وما يعتقده سانت جوست هو أن الإنسان بطبيعته خير ويصبح شريراً بسبب الحاجة، وفي حالة بناء دولة على أسس خلقية خالية من الأنانية واللامبالاة، فإن ذلك لا يتم إلّا بمراقبة الكبار للصغار وخاصة في مجال القيم وبعنوان «فن التربية» يقول سانت جوست في الفقرة رقم 6 من مؤسساته وذلك فيما يتعلق ببرنامج دولة المستقبل ما يلي:

«الطفل يخص أمه حتى سن (15) الخامسة عشرة وما بعدها يخص الدولة حتى الموت، والتعاون في مجال التربية ضروري والتي يجب أن تكون منظمة وصارمة. أما مهمة ألعاب الأطفال فإنها تتمثل في تعويدهم على الصراحة وتبسيط الحقائق.

وتقوم الدولة بتربية الصبيان ما بين 5 ـ 16 وما بين سن 5 ـ 10 يتعلم الصبيان في القرية القراءة والكتابة والسباحة وهؤلاء الأطفال لا يجلدون ولايدللون ولكنهم يعوّدون على الخير ثم يتركون أمرهم إلى الطبيعة وعلى هؤلاء الأطفال أن يلبسوا طوال السنة الملابس البيضاء وأن تكون فترة نومهم ثمان ساعات ويكون طعامهم جماعياً من منتوجات الخضروات والفواكه والحليب والخبز والماء.

أما مدرسى الصبيان ما بين (10 ـ 16) سنة فإنه يجب أن لا تقل أعمارهم عن 60 سنة ويختارون من ذوى الأوشحة البيضاء. وتكون تربية هؤلاء الأطفال أى ما بين عشر سنوات وست عشرة سنة تكون هذه التربية عسكرية وزراعية، ويقسم هؤلاء التلاميذ إلى 60 سرّية، يكون لكل 6 ست سرايا قائد يختاره التلاميذ بأنفسهم وذلك بما يتفق وميولهم. وفي كل سنة أى عند عيد الصغار يجتمع المؤسسون في مكان رئيسي للدائرة ويعسكرون من أجل التدريب الذي

يشمل كل الوان التدريب العسكري وكذلك يتعلمون اللغات الأجنبية. وفي زمن الحصاد يوزعون على المّلاك.

اما التلاميذ ما بين سن 16 ـ 20 فإنهم يعدون لوظائف يختارونها هم بانفسهم كالفلاحة والتجارة والملاحة والصناعة. وكل الصبيان حتى سن 16 لهم ملابس موحدة وتكون ملابسهم من سن 16 إلى سن 21 ملابس العمل وما بين سن 21 إلى 25 يلبسون الملابس العسكرية، وينسبون للخدمة العسكرية أياً كانوا متزوجين أو عُزّب وذلك في حالة عدم التزامهم بوظائف عامة.

وبهذا المنهج يرى سانت جوست إمكانية تنظيم التربية الجسدية والنفسية والروحية. وقد وضع هذا البرنامج التربوى للبنين فقط بينما ترك تربية البنات للأُمهات حيث يتعلمون كل ما يحتاجون اليه فيما بعد داخل البيوت كزوجات وأمهات.

ونحن في القرن العشرين حينما نقرأ هذه التربية الاسبرطية والتي هي ليست معروفة للآخرين بقدر ما هو معروف عنه في قضيته مع الملك أو دانتى، فإننا سنهز رؤوسنا سخريةً وسنضحك منها إذا ما فكرنا في الشباب الباريسي القابع في البارات أو الذى يعمل في الظلام ويتعاطى المخدرات ورفع السلاح بدون أى معنى سوى الاستهتار والاغتصاب الجنسي الخالى من الحب.

وهذا الوصف هو بالطبع الصورة المتطرفة والمضادة لمثالية سانت جوست. وتظهر هذه الصورة خطورة سن الشباب السابحة في تيار بدون هدف وبدون توجيه سوى المتعة الغاشمة. وكثير من الشباب الصغير ليست لهم رؤية واضحة وهم يقلدون غيرهم في المدن المريضة ليسيروا وراء الضجيج واشباع الغرائز دون معرفة لطريق العودة إلى البساطة والطهارة. ويمكن القول بأن هؤلاء الشباب وقعوا في أيدي أنبياء مغالطين وكهنة أوقعوهم في أخطاء المتعة الحسية ولم يتمكنوا من العودة إلى الحياة السليمة. وعندما يخفق المجتمع أو الدولة في هذا المجال يكون الوقت ملائماً للمجموعات السياسية أو الدينية لتوجيه الشباب إلى أهداف معينة.

ولسقوط الأخلاق أسباب من بينها ما يمكن تسميته بأُبّهة الشباب، فإن التربية لشبابنا في هذا اليوم حسب تصور سانت جوست تكون غير ممكنة وخاصة

في المجتمعات الصناعية. وإذا كانت هذه التربية لا يمكن تطبيقها في القرى البعيدة عن الازدحام ومراكز الأعمال حيث لا تستطيع اقناع سكان القرى بالابتعاد عن الاستمتاع الجنسي والاستهلاك للبضائع، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نستطيع أن نقنع الشباب في باريس أو لندن بالعيش على الخضروات والخبز والحليب فحسب وينامون على فراش من الأعشاب الخشنة وأن يكتفوا بلباس القماش الأبيض في الشتاء؟!.

ومما تجدر الإشارة اليه هو أنه وجدت تربية لنظام الدولة الشامل كما هو الحال بالنسبة لنازية هتلر في المانيا والنظام الشيوعي الذين يجمعون شبابهم تحت الراية الحمراء، ويسعون إلى تربية الأجيال اللاحقة على أسس ومبادىء ايديولوجية معينة. وهذه المؤسسات جميعها تشترك في تيار عام، إذ إنهم بغض النظر عن التربية العسكرية فإنهم يسعون إلى تربية الشباب بحيث تكون لهم أجسام قوية وأن يكونوا مطيعين وذوي عزيمة صادقة. إن حركة الكشاف العالمية تتميز أيضاً إلى جانب هذا المشاركة في التربية بمساعدة الآخرين والعمل الخيري لكل يوم.

والتربية العسكرية ليست حكراً على النازية والشيوعية بل هي أمر طبيعي لشعوب العالم الثالث. وكذلك الدول الشرقية وغيرها من الدول التي حصلت على استقلالها فإنهم يدربون الشباب ما بين سن 14 ـ 18 كتعبير مرحلي للانضمام إلى أسراب الجيش التابع للحزب الحاكم أو الجيش الشعبي والنزعة إلى الدفاع وتوجيه الشباب سياسياً وعقائدياً فهي واحدة عند الجميع.

ويمكن الإشارة إلى البرنامج التربوي لسانت جوست في مجال الاقتصاد الزراعي إذ يفهم ذلك من وجهة نظر قومية. فعلى الشباب أن يعوا مسئوليتهم بالمساهمة في تغذية أفراد كل الشعب وذلك في حالة ما يكون هناك نقص في العمال بالنسبة للفلاحين. وفي الدولة الألمانية الاشتراكية يقوم الشباب والشابات بالزراعة لمدة سنة وذلك قبل انضمامهم للعسكرية أو استلامهم وظائف أخرى. وهذا البرنامج اقتصادي أكثر من سياسي وهو صالح لكل نظام يقوم على تعاون المجموعات الشعبية. وكثيراً من الآباء يشعرون بأن هذه التربية العسكرية عرقلة للدراسة أو تعسف من طرف الدولة أو الحزب وهذا التعسف يعد تدخلاً

في شئون الأسرة. وهكذا يصبح دور الآباء جانبياً مقارنة بنموذج الدولة القيادية الموجهة للشباب وكذلك الحكم المطلق هو الذي يختار التخصص وتوجيهه وهكذا تكون المصلحة الوطنية فوق الرغبات الفردية للآباء والأبناء.

إن الفتيات حسب تصور سانت جوست يجب أن يلتزمن برعاية أمهاتهن حتى الزواج وهذا ما ينص عليه عصرنا حتى اختيار الوظيفة، ولكننا نرى منذ عشرات السنين أن الفتيات ما بين 10 ـ 18 سنة يتحركن في كل الاتجاهات للشباب إذ يلبسن الزى العسكرى ويمشين مع زملائهم من الذكور في الغابات والحقول ويجلسون في المساء حول النار ويغنون معاً أغاني الحرب والأغاني الوطنية وكذلك في المجالات الأخرى كالمساعدة في الحقول والتمريض والحماية الجوية، فإن البنات يتدربن كالرجال لأن الأمر في الحالات الخطيرة يشمل الرجال والنساء.

إن التربية العامة سواء بالنسبة للدولة أو على نحو خاص كانت دائماً موجودة من مرحلة التعليم الابتدائي إلى التعليم الكنسي إلى التعليم القائم على الأقسام الداخلية في الدولة الحديثة. والأسرة التي تستطيع أن تغدق على إبنها تحتفظ دائماً بميزاتها الخاصة. ففي نفس الدائرة التي بها الأقسام الداخلية يكون لإبنها اثناء العطلة أو نهاية الاسبوع حجرته الخاصة ولباسه الخاص بدلاً من اللباس الموّحد ويقدم له من الطعام ما لذّ وطاب.

ولكن التربية القومية بالمعنى الذى يقرّه سانت جوست ونظامها السلطوي الجديد أو الشعبي الديمقراطي، فإن التلميذ في هذا النظام يكون من الناحية الايديولوجية مجرد طفل يتعلم ويطيع. وعن طريق العلم والمسئولية السياسية سرعان ما يشعر الطفل المدلل من طرف أسرته اثناء العطلة بنموه المتكامل من خلال نقاشه مع زملائه ومربيه وبهذا النشاط التام يشعر التلميذ وهو في سن الثانية عشرة بأنه رجل من خلال المحاكاة للكبار.

ولكن هل سأل سانت جوست نفسه كيف يكون هذا الطفل في المستقبل كأب، وقد سبق وأن سلب منه حنان أمه وسكينة بيته لتصبح له صلابة الجندي وليكون بعيداً عن العواطف؟. حقاً إنه لم يهتم بهذا السؤال لأن الإجابة واضحة

بذاتها، وهذا الطفل الذي سينضج ويتزوج ويصبح له أطفال فإنه هو الآخر لن يوظف خصائص الأبوة بصورتها التامة. وعليه أن يُسلِّم ابنه البالغ من العمر خمس سنوات إلى الدولة تماماً كما حدث له حينما أُخذ من بيت أبويه ليكون في حمى الجمهورية. وهكذا يستمر الجيل بعد الآخر في آحلام دولة سانت جوست. ولكن ماذا عن الزواج والحب؟ إنه ينتج أبناء اصحاء ولكنهم ليس من أجل آبائهم بل من أجل أن يقفوا إلى جانب الجمهورية من أجل تثبيتها.

لو عاش سانت جوست في أسرة راقية لحسب للجانب الأخلاقي في تربية الأسرة حسابه. ولكنه فقد أبوه وهو في سن العاشرة وتربى في مدرسة داخلية، ولعله لم يوفق في إيجاد علاقة حقيقية بينه وبين أمه وأخته الصغيرة. ولم يوفق أيضاً في تأسيس أسرة لأنه فارق الحياة وعمره 27 سنة وهي سن الزواج الأوربى أو سن الخطوبة.

وقد أحب فتاة في قرية بليزانكور blesancourt وعمره تسع عشرة سنة والتي كانت تكبره سناً، ونظراً لأنه لا يملك مالاً يمكنه من الزواج بها فإن أبا الفتاة ضحى بمشاعرها وزوجها لرجل مرموق. وأخيراً عاش مع أخت لزميله والتي تبلغ من العمر 18 سنة وكأنها خطيبة له.

لقد كان يوجد آنذاك في باريس خطباء وسياسين ذوى ألسنة حادة وكتب وجرائد ولكنه لم يوجد في ذلك الوقت الصحف التي تتخذ من الفضائح وقضايا الحب حديث الساعة والتي تجد قراءها وهذا ما يهم وأصحابها كسوق تجاري.

ولهذا السبب لم يجد المؤرخون وأصحاب الطبقات المتتبعون لعصر سانت جوست حقائق ثابتة تصوّر روح العصر وتصور حياته شخصياً مفصولة عن غيره. ولا أدل على ذلك عدم معرفة أى أحد ماذا حدث لأخته الصغيرة أو أصدقائه بعد إعدامه. ومع هذا فإنه يذكر بأن في الأشهر الأخيرة قبل إعدامه حدث نزاع أسرى حول روبيسبيير Robespierre حيث عاشت أخته المشاكسة مع أسرة النجار دوبلي duplay. ولعل هذه المشاجرة مجرد نزاع يومي مثل تلك التي تحدث بين النساء اللائى يعيشن معاً في بيت واحد. وهو أمر عادى. وكذلك يوجد شيء ما حول غرابة الأمر بالنسبة ما بين سانت جوست وخطيبته حيث يرى أنها لا تتطابق مع رغباته.

وفي هذه الفترة عاش سانت جوست طويلاً في بعثة بالجيش وذلك كممثل للشعب، وكانت فعاليته تتم في ظروف صعبة بما في ذلك من أخطار السفر في أقاليم أجنبية وبالطبع فانها أشد قسوة من حياته المنزلية التعسة ولهذا فإنه ينظر إلى الصداقة الحقيقة نظرة مثالية وهي التي يقيم لها وزناً في مؤسساته ويؤكد على اهميتها بدون شروط، وقد أكد هو شخصياً على ذلك من خلال صداقته لروبسبيير Robespriere .

إن معمر القذافي يعرف جيداً ما تعنيه صحبة الرجال، ولا يمكن الاستغناء عن هذه الصداقة سواء في حالة السلم أو الأزمات ولا يقتصر الأمر على ما يخص الثورة الليبية بل نجده يهتم بالعلاقات الأسرية الأبوية ويشاركهم في حل المشاكل إلى أقصى حد، وهذا يعد حجر الأساس لبناء المجتمع الشعبي.

إن أطفاله وأطفال شعب الجماهيرية يعيشون طفولتهم في كنف آبائهم، ولا يفصل الطفل عن أخيه أو أخته في سن الخامسة كما يترك صغار الليبيين ينمون بصورة طبيعية قبل أن يقوموا بواجبهم الوطني. وكذلك يكون الأب والجد هما النموذج ليصبحوا الأبناء رجالاً وذلك كما هو مطابق للتقاليد العربية.

وفي مؤسساته يشير سانت جوست دائماً إلى مشاركة الزوجة في تحديد الحياة الزوجية وقوانين الطلاق والإرث والتربية والقرار، ولكن فيما عدا مثل هذه الإشارات يتركها في الظل، والسبب في ذلك عدم ظهور مشكلة المرأة في عصره، وهو إذ يهتم بالمرأة في موضوع معين الا وهو حق المواطنة ولعله يرمي إلى ما تمناه في شبابه حيث يريد للمرأة أن تختار زوجها بدون العودة إلى أبيها.

وصف معمر القذافي دور المرأة بالنسبة للدولة في بعض الصفحات من الجزء الثالث من الكتاب الأخضر وباسلوب واضح يختلف عن اغلب اسلوبه في كتاباته ومناقشاته الأخرى حول هذا الموضوع يقول بهذا الصدد:

«إن الاستغناء عن دور المرأة الطبيعي في الأمومة أى أن تحل دور الحضانة محل الأم - هو بداية الاستغناء عن المجتمع الإنساني، وتحويله إلى مجتمع بيولوجي وإلى حياة صناعية. إن فصل الأطفال عن أمهاتهم وحشرهم في دور الحضانة هي عملية تحويلهم إلى ما يشبه أفراخ الدجاج تماماً.. إن بني

الإنسان لاتصلح به وتناسب طبيعته وتليق بكرامته إلاّ الأمومة الطبيعية أى أن (الطفل تربية أمه).. وأن ينشأ في أسرة فيها أمومة وأبوة وأخوة.. وإن الأم التي تتخلى عن الأمومة اتجاه ابنائها تخالف دورها الطبيعي في الحياة.. إن دفع المرأة لعمل الرجل هو اعتداء ظالم على انوثتها التي زودت بها طبيعياً لغرض طبيعي ضروري للحياة.. وهكذا فالمسألة ليست أن تعمل المرأة أو لا تعمل فهذا طرح مادي سخيف. فالعمل يجب أن يوفره المجتمع لكل أفراده القادرين عليه والمحتاجين له رجالاً ونساءً ولكن أن يعمل كل فرد في المجال الذي يناسبه.. وأن لا يضطرّ تحت العسف أن يعمل ما لايناسبه.. ليس هناك فرق في الحقوق الإنسانية بين الرجل والمرأة والكبير والصغير.. ولكن ليست ثمة مساواة تامة بينهم فيما يجب أن يقوموا به من واجبات.»..

ما هي المشكلة التي يعالجها القذافي في الكتاب الأخضر. إنه يعود دائماً إلى الفطرة الأصلية ويضع الإنسان دائماً في مكانه الصحيح في كل مجالات حياتنا الحديثة للمجتمع التقني. ومن المدهش وجهة نظره حول الكوميديا وهنا يلتقي بدون سابق معرفة مع سانت جوست الذي كتب في خطته التربوية انه يجب منع الأطفال من التمثيل الذي يبعد الصغار عن تراثهم الفرنسي كما يخشى من إلقاء قصيدة أو تمثيل فقرة من مسرحية إبعاد الأطفال عن بساطة الحقيقة.

وفي الكتاب الأخضر الذي أصبح معروفاً لدى بعد نصوص سانت جوست بسنوات عديدة كتب القذافي يقول:

«وهكذا فالشعوب البدوية لا تهتم بالمسرح والعروض لأنها كادحة وجادة في حياتها للغاية، فهى صانعة الحياة الجادة ولهذا تسخر من التمثيل. والجماعات البدوية كذلك لا تتفرج على لاعبين بل تمارس الأفراح أو الألعاب بصورة جماعية، لانها تحس عفوياً بالحاجة اليها فتمارسها دون تفسير».

وأنا لا أكون واقعية إذا ما وافقت قائد الثورة بدون نقد في كل ما يقوله أو يكتبه وذلك فيما يتعلق بالسؤال عن العقلية أو الذوق وليس فيما يخص أفكاره الكبرى وأعماله الاجتماعية الثورية. ولهذا فإننى اعتقد أننا كأوربيين لا نستطيع

أن نستغني عن تقاليدنا بالنسبة للمسرح والأوبرا والأعمال الفنية الأُخرى التي تملأ حياتنا العاطفية، ومع أنها لا تحل مع نواقص الفعاليات الخاصة بنا.

ورغم كل هذا فإنه قد اعجبتني كلمات قائد الثورة التي تعبر مباشرة عن فخره ببداوته. إنها كلمات تجسِّد حقيقته، ولا تجعله مجرد ممثل على مسرح كوميديا السياسة العالمية. إن حياته الجادة وبساطة الحقيقة لسانت جوست يتطابقان.

يرفض القذافي أيضاً اسلوب احتكار الرياضة دون محاربة الجميع لها وقد كتب في الجزء الثالث من الكتاب الأخضر بهذا الشأن ما يلي:

«إن الرياضة العامة تخص كل الجماهير.. وهي حق لكل الشعب لما لها من فوائد صحية وترفيهية، من الغباء تركها لأفراد وجماعات معينة تحتكرها، وتجنى فوائدها الصحية والمعنوية بمفردها بينما الجماهير تقدم كل التسهيلات والإمكانات وتدفع النفقات لقيام الرياضة العامة وما تتطلبه. إن الآلاف التي تملأ المدرجات الملاعب لتتفرج وتصفق وتضحك هي الآلاف المغفلة التي عجزت عن ممارسة الرياضة بنفسها».

وإذا ما عدنا إلى سانت جوست فإننا لا نعرف رأيه في الرياضة حيث لم يوجد من الرياضة في عصره سوى ركوب الخيل والمبارزة والصيد وهذه جميعها رياضة الرجال وهي ليست ميسرة لكل الشعب، ومن المؤسف له حقاً إن الجانب الاجتماعي في الرياضة قد استغل كعامل تجاري ومن هنا ترتبت عليها ظواهر مخزية وهنا يلتقي سانت جوست مع صاحب الكتاب الأخضر الذي كتب بهذا الصدد قائلاً:

«أما الملاكمة والمصارعة بأنواعها فهى دليل على أن البشرية لم تتخلص بعد من كل السلوك الوحشي».

كل الشباب الليبي يزاول الرياضة، يغني ويتسلى ولكن من أجله هو ومن أجل الزملاء. والكل يشاركون في الرياضة بقدر امكاناتهم وهذا ما يريده معمر القذافي ولكنهم لا يلجئون إلى الكوميديا والتنكر لأن ذلك يظهر الشيء

على عكس حقيقته وبهذا يعطون صورة عن الاستمتاع الجماعي. إن مظلتي في الفندق بطرابلس رسم عليها مواطن صغير بملابسه العسكرية الخضراء اثناء تدريبه بالمعسكر أو بملابس الاحتفالات المزركشة بمختلف الآلات الموسيقية.

بقيت في نفسي ذكرى طفلة صغيرة وقفت أمام مكبر الصوت لتغني وتشير بأصبعها إلى صدرها، وتحرك بعد ذلك يدها لتشير إلى من حولها.

ولعله لم يكن كل هذا قد قيل في أغنية الطفلة وحيث إني لا أعرف العربية جعلني خيالي أتصور النص وكأنها تقول «إننى سعيدة لأعيش في بلد تطمح لسعادة كل الشعب وهذا ما أتمناه لكل البشر» إن وجه الصغيرة لم يعبِّر عن جمال خارق ولكن عينيها السوداوين يعبران عن ثقة عميقة بأن الأطفال يولدون في الجماهيرية ليكونوا سعداء في مستقبلهم.

هذا الرجل أي قائد الثورة يكون دائماً حاضراً في نفوس الشباب، لا بسبب تزيين الحجرات بصوره فحسب أو بسبب غرس المدرسين حقائق الكتاب الأخضر في رؤوس الشباب. ولكن ما يفعله العقيد هو أنه يتكلم شخصياً وبصورة مستمرة لصغار السن والتلاميذ والجيش. وهذا وحده يعطي انطباعات حسية ومتكاملاً على عكس ما يحكيه كبار السن بطريق غير مباشر للشباب عن سانت جوست. إن المقارنة تقودنا من جديد إلى السؤال هل هذا اليعقوبي الكبير لو عاش لكان بإمكانه أن يكون قائد حركياً مثل العقيد القذافي أو أنه بقي كإنسان منغلق على نفسه.

أظهر سانت جوست خطأ شعبه وضعفه، وقد أراد توضيح ذلك في مؤسساته، ولكن أفكاره لم تحقق رغبة أفراد شعبه لأنها كانت تتناول قيماً غيبية أكثر منها واقعية وبدون حرارة قلبية متدفقة اعتمد على الحب المجرد مما أودى بحياته كفداءً للجمهورية. «إنه بارد كالفكرة» هكذا رآه احد المؤرخين الفرنسيين المشهورين ، وقد توهجت أفكاره من جديد.

ويبقي معمر القذافي كإنسان من بين الناس رغم افكاره الفلسفية والدينية الثابتة وغير المتغيرة. إن الجماهيرية ليست مجرد فكرة بل هي إنتاج حيوي ونشاط يشمل كل الناس وإذا كان الأمر يقتضي التضحية فإن المواطن يعطي

ويأخذ في نفس الوقت. وتأسست الدولة بدون أن يكون هناك ضرر ولاضرار للفرد، وقد كتب القذافي في كتابه الأخضر عن الأسرة في صورة أشبه بالشعر حيث يقول:

فالأسرة بالنسبة للإنسان الفرد أهم من الدولة.. الإنسانية تعرف الفرد «الإنسان» والفرد «الإنسان» السوي يعرف الأسرة.. والأسرة هي مهده ومنشأه ومظلته الاجتماعية. طبيعياً الإنسانية الفرد والأسرة وليس الدولة.. الإنسانية لا تعرف ما يسمى بالدولة.. الدولة نظام سياسي واقتصادي اصطناعي وأحياناً عسكري لاعلاقة للإنسانية به.. ولا دخل لها فيه. فالأسرة هي تماماً مثل النبتة الواحدة في الطبيعة التي هي أساس النبات الطبيعي...

أما تكييف البيئة الطبيعية إلى مزارع وحدائق وما إليها فهذا إجراء اصطناعي لاصلة له بطبيعة النبتة المتكوّنة من عدد من الفروع والأوراق والأزهار بما يشبه الأسرة تماماً. فكون العوامل السياسية والاقتصادية أو العسكرية كيفّت مجاميع من الأسر في دولة فهذا لاصلة للإنسانية به. فهكذا أى وضع أو ظرف أو إجراء يؤدى إلى بعثرة الأسرة.. أو اضمحلالها وضياعها هو وضع غير إنساني وغير طبيعي بل هو ظرف تعسفي وهو تماماً مثل أى عمل أو ظرف أو إجراء يؤدي إلى قتل النبتة أو بعثرة فروعها أو إتلاف أزهارها أو أوراقها أو ذبولها.

إن المجتمعات التي يتهدد فيها وجود الأسرة ووحدتها بسبب أى ظرف هي مثل الحقل النباتي الذي يتهدد نباته بالانجراف أو العطش أو الحرق أو الذبول واليبس. فالحديقة المزهرة أو الحقل المزهر هو الذي تنمو نباتاته نمواً طبيعياً وتزهر وتلقح وتستقر.. وكذلك المجتمع الإنساني.

فالمجتمع المزدهر هو الذي ينمو فيه الفرد في الأسرة نمواً طبيعياً وتزدهر فيه الأسرة ويستقر الفرد في الأسرة البشرية مثل الورقة في الغصن أو مثل الغصن في الشجرة لا معنى له إذا انفصل عنها ولا حياة مادية له وكذلك الفرد إذا انفصل عن الأسرة. أي الفرد بلا أسرة لا معنى له ولا حياة اجتماعية له وإذا وصل المجتمع الإنساني إلى وجود الإنسان بدون أسرة فيصبح حينئذٍ مجتمع صعاليك مثله مثل النبات الصناعي.

السلاح بيد الشعب

السلاح بيد الشعب

«إن حماية الأرض تقع بعامة في يد الشعب حيث أن ثلث القادرين على حمل السلاح يجمعون بصورة ثابتة ومستمرة ويختارون الضباط من بينهم ويضعون سلاحهم في بيوت شهود عيان ويعطى السلاح ليكون بيد الشعب» وهذا النص يرجع إلى الجنرال البروسي كارل كلاوزوفيتر C. clausewviz صاحب الكتاب المشهور عن «الحرب» المتكون من 700 صفحة والذى لا تزال له أهمية حتى يومنا هذا.

في عهد حرب نابليون كان الدفاع البري الألماني قوياً وكان يزود الجيش في الدفاع عن الأرض مما جعل الحرب بين القواد والحكام المستبدين مستمرة في صورة سجال كأمر يخص الشعب وعليه فإن المواطنين والفلاحين من القرى والمدن يتدربون على السلاح في وقت قصير ويواجهون الغازى بدفاع مستميت.

وقد أحس جلاوزفيتر بإشكالية الشعب المسلح وذلك من خلال تساؤله في قوله «إن الدفاع الوطنى يزيد من الخطر على ثورة ما، ونزع السلاح يزيد من خطر التدخل الخارجي، ولكن أى الخطرين أكبر حسب الشواهد التاريخية؟! هل كان الشعب الفرنسي 1789 مسلحاً؟ وما حدث بالعكس حيث واجه الشعب الفرنسي الأعزل حكم الملكية المطلقة وبدون أى مساعدة عسكرية، وبسبب القناعة الجوانية قامت الثورة التي هزّت أوروبا كلها خلال الخمس وعشرين سنة اللاّحقة.

في 1792 أى بعد تحطيم الباستيل بحوالي ثلاث سنوات فقط استطاعت فرنسا أن تؤسس جيشاً وطنياً من كل الأقاليم وبدون إرغام، وقد أصبح هذا الجيش فيما بعد يضاهي الدفاع الوطني الألماني.

إن ملك فرنسا المخلوع كان صابراً بعد هروبه من الشعب وخلعه وبإعلان النمسا الحرب على فرنسا استطاع الملك بإتفاق سرى أنه في حالة استيلاء القوات على باريس فإنه سيكون حكم التاج في فرنسا بدون حدود وستعاد قوانين الإقطاع. وهكذا تعالت في هذا الوقت الهتافات «الوطن في خطر» مما كان لذلك دوره في اندفاع الفرنسيين من كل اقليم لمواجهة خطر هجوم النمساويين المتحالفين مع البروسيين وصدهم.

وفي 10 اغسطس سنة 1792 بعد نقاش حار وطويل طالبت الغالبية بإسقاط الملك، واندفع الشعب حتى القصر حيث جرت معارك دموية مما اضطر الملك لويس الرابع عشر إلى الفرار مع أسرته. ومنذ ذلك الحين أصبح الجيش يقسم من أجل حماية الجمهورية بدل الملكية. وفي هذا الوقت وضع النشيد الوطنى للثورة «نشيد مرسيليا» الذى لا يزال حتى اليوم يغني بنصه التاريخي المستعار أصلاً من أغاني الكنيسة.

وفي هذه اللحظات التاريخية ولد الطبيب جوليتون Guillitone والمخترع لآله الإعدام السريعة والإنسانية وبذلك استطاع أن يخلد اسمه في التاريخ ويقول المؤرخون بأنه اهتم على وجه خاص بالهيجيينا التي لم تكن في ذلك الوقت معروفة وهذا مازاد في شهرته عندما بلغت به السن.

ولكن أكبر خطر داخلي للوطن اثناء الحرب تمثل في انتشار الخيانة. وفي باريس والمدن الأخرى شعر المواطنون بالخطر المتسبب فيه أعمال المجرمين السرية أى أعمال المعارضين للجمهورية من الداخل وأعمال المحرضين الأجانب ومن هنا طالب المواطنون بالانتقام. وبالاختراع الجديد بدأ يطبق فعلياً بسرعة وبطريقة إنسانية في ساعة الثورة.

وعلى الحدود خاض الجيش والفدائيون دفاعاً مستميتاً حيث لم يكن هناك من يفكر في السياسة واحوال باريس. ولا يعرف جندي الحدود سوى الدفاع والعمل، أنه يعرف من هو العدو وأين هو، وكيف يمكن القبض عليه أو تجنبه.

وعندما حاول جيش (براون شفانج بـألمانيـا) المتحالف مـع البروسيين مهاجمة باريس، فإنه أوقف على تلال ڤالمى Valmy من طرف المدافع الفرنسية وأرجع هذا الجيش على أعقابه وكان هذا الانتصار بالنسبة للجيش الثورى بمثابة «قنبلة ڤالمى» في التاريخ. وإذا لم يكن هذا الانتصار هو نهاية الحرب فإنما كان يدل على الحماس ضد عدو قوي. إن هتاف الـرماة التلقـائي «يحيا الـوطن» جعلت العدو يعتقد في وجود قوة كبيرة على ڤالمى.

عايش الشاعر الألماني الكبير جوته Goethe هذه الأحداث واستطاع أن يفهم علامات ذلك التاريخ وللإجابة عن سؤال يتعلق برأيه قال: «من هنا ومن هذا التاريخ تبدا حقبة جديدة في تاريخ العالم والتي يمكنها أن تقول لنا إنكم معنا».

كان جلوزيفتز في هذه الفترة طفلاً، ولكنه وجد نفسه سنة 1794 وقد بلغ من العمر أربع عشرة سنة يحمل رآية الجيش. وهذا التقليد كان متعارفاً عليه في العائلات المشهورة والأسر العسكرية وهو مانسيناه في يومنا هذا. . إن رؤية أسير لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره في الإذاعة المـرئية سيـوقظ بالفعـل عطف المشاهدين للأسير وهذا أمر طبيعي.

ولكن الشاب في مثل هذا العمر لم يعد طفلاً وذلك على عكس ما نعتقد إنه يعرف كيف يتعامل مع الآلة والتقنية بشكل جيد ويستطيع أن يحمى جسده ونجده يقدم بشجاعة، كما لو كان بلعبة لأنه لا يعرف الخوف من الموت كما يعرف الرجل المتكامل في نموه. إن هذا الشاب لا يتصور حقيقة الموت ولهذا لا يخاف الموت.

ومن ناحية أُخرى فإن الشاب في سن الرابعة عشرة أو السادسة عشرة يعتبر من المواطنين المتعصبين لأنه يعرف معنى النداء «الوطن في خطر» ويعرف كيف يدافع على مواطنيه المهددين وبكل تأكيد فإن هؤلاء الشباب الذين لا يملكون خبرة واسعة في الحرب يجب ألاّ يزج بهم في الصف الأمامي للمعركة. ولكن يوجد في كل معركة واجبات أقل خطراً وهي التي يقوم بها هؤلاء الشباب بكل شجاعة وإقدام. أما الشباب الباقون في المدينة مع أمهاتهم، فإنهم مهـددون

بدرجة لا تقل عن الذين هم في الجبهة لأنهم غير قادرين على الدفاع وردع المهاجمين.

وفي كل حرب يوجد الاحتياطي الأخير ويقصد به كبار السن والصغار والفدائيون أو ذوى الإلزام العسكري وكان مثل هؤلاء الاحتياطيين في الحرب العالمية الأولى «حماة نيرول» أطفال النمسا مع أجدادهم على الحدود الإيطالية وكان تحت ظروف قاسية في الجبال العالية. ومع هذا استطاعوا مواجهة العدو ببسالة فائقة واستمرارية غير منقطعة. وكذلك الأمر بالنسبة للحرب العالمية الثانية نجد الشباب قد شاركوا على الطرفين، شارك التلاميذ في ألمانيا إلى جانب الدفاع الجوي وشارك الشباب السوفييتي وهم في سن الثانية عشرة في الحرب وقتل بعضهم من أجل الوطن وكانوا يحملون بنادق ثقيلة والتي يبلغ طولها طول حاملها.

إن ما تحمله شجاعة هذا الشاب من غريزة لحب الوطن في ساعات الخطر وهو ما تعلمه جلوزوفيتر كطفل في المدرسة الحربية حيث يصبح الصغار في سن الرابعة عشرة أو السادسة عشرة ملازمين وضباط على الحدود وفي المحميات. كما أصبحوا عقداء في سن الثامنة عشرة والعشرين.

إن من الغريب أن تحدث عداوة بين سانت جوست المنظّر للثورة وبين «فيلسوف الحرب» في فترة متأخرة ولكن الملازم البروسي الصغير وجد نفسه في ذلك الوقت بمدينةماينتز المحتلة والممثلة كقاعدة أمامية لفرنسا القوية. بينما بعث سانت جوست كمبعوث وطني إلى منطقة شمال الراين وحدود بلجيكا ومنها إلى ستراسبورج.

وفي الفترة القصيرة من نشاطه في الثورة الفرنسية فربما نشاطه العسكري كان أبرز حدث رغم أنه لا يمثل الثقل فيما خلفه سانت جوست للعالم. وفي مركز السياسة باريس يعرفون موقفه العام خاصة كمتهم إن كان هجمومي وحاد الكلمات الباردة وذلك أشبه بسكين «مقصلة» حيولوتين. ويظهر مرة أخرى كحالم ومفكر في كتبه. أما على الحدود بعيداً عن السياسة وانتقامها فإنه يمثل حيوية الشباب محباً للخيل وامشتاق السلاح. وهناك وجد ـ حسب تعبيره ـ المواطنين الحقيقيين الذين يدافعون بأيديهم على الجمهورية بدل نقاش النواب ومجادلتهم

في المجلس النيابي وهذه المثالية العسكرية عند سانت جوست توضح بريق منهجه القائم على وحدة الثورية والنظام العسكري.

إن ظهوره في الجبهة على الحدود كان مخيفاً ويسمونه في تاريخ حياته «الريح الفولاذية» يركب عربة خفيفة مصحوباً مع أحد زملائه هنا وهناك بين الفيالق ليحقق النظام. وعند وصوله إلى ستراسبورج حاول إضعاف الأقوياء وتحطيمهم في ضوء هزيمة الراين بحديث قال فيه:

«قدمنا إلى هنا ونحن نقسم باسم الجيش بأن العدو سيهزم، وإذا ما وجد خونة أو لا مبالين بأمور الشعب فمالهم السيف. أيها الجنود سننتقم لكم وسنزودكم بالتشريعات التي تقودكم إلى النصر».

وبسماع هذه الأوامر صار كبار الضباط الذين خبروا معارك أو الذين انتابهم الشعور بالهزيمة صاروا يرتعشون وذلك ليس خوفاً على رتبهم فحسب بل يخافون قطع الرؤوس أكثر من ضياع الرتب إذا ماوقفوا أمام المحكمة العسكرية أو المحكمة الثورية. إلاّ أن فريق الجيش أى الجنود العاديين وجدوا في سانت جوست الصديق الوفي إلى شكواهم وحينما يقتنع بمطالبهم فإنه يستدعي من اشتكوه إلى المساءلة. وكان يهتم بالتموين الجيد والتزود بالسلاح والأكل.

لم يكن صديقاً لأغنياء ستراسبورج، بل فرض في أموالهم حق للضرورات التي يحتاجها الجنود، وقد طلب آلاف الأحذية للجنود التي استبدلها أحد الغشاشين البارزين بأحذية عادية طويلة الأرجل، بحجة أن هذه الأحذية المجمعة لا تليق بالجنود ولكن هذه الأحذية بها الجلدية وذات الخيوط الفضية وغيرها من الأحذية الثمينة.

وما قام به سانت جوست أيضاً هو أخذه من ربات البيوت والفلاحين «القشوة» ليستعملها من أجل دهان فوهات المدافع خاصة وأنه في ذلك الوقت لا يوجد دهان خاص للآليات من الشحوم الرخيصة.

وكان يهمه أخلاق الجنود حيث كان يطارد المؤسسات ويبعدهم عن الخيام، واقر عقوبات صارمة للجنود والذين يتركون مواقعهم بدون إذن رسمي لكى يتسكعوا في المدينة، وفي مؤسساته سنّ القواعد التالية لأخلاق الجنود:

1 ـ إن الجندي الذي يفقد مكانه في المعركة ويفقد سلاحه أو يتصرف ضد المبادىء الموضوعة أو يشكو الإرهاق فعقوبته الا يعود إلى وطنه.
2 ـ إن الأب الذي يحتضن ابنه الجبان فيعاقب بحرمان من حمل الوشاح الأبيض لكبار السن.
3 ـ الجندي الذي يشتم قوانين بلده أو يكون غير مطيع أو يشتم رئيسه أو يضربه فإن عقوبته الإعدام.
4 ـ إن الجندي الذي يسرق أو يغتصب وهو فوق الأرض الفرنسية فإنه يبعد عن العسكرية أما حينما يرتكب مثل هذه الجريمة وهو على الأرض المحتلة فعقوبته الإعدام أيضاً.

وهكذا عندما يكون الأمر متعلقاً بالمبادىء أو الأخلاق فإن سانت جوست لا يعرف التسامح، لأنه كان على وعي بأهمية ذلك بالنسبة لروح الحرب وصحة الجنود واحترامهم خاصة اثناء الحرب نفسها. ومن هنا يجب أن تكون هناك رقابة عسكرية إلى جانب الرقابة المدنية من أجل معرفة أخلاق الجنود وملاحظتها.

وفي الفقرة السادسة عشرة من المؤسسات يقول سانت جوست «كل ثورة تحتاج إلى دكتاتور وذلك لإنقاذ الدولة بالقوة أو إنقاذها خلقياً عن طريق المراقبة الدقيقة».

ولكن ما هو المنهج الذي كان سيتبعه سانت جوست إذا ماكتب له النجاح وتحققت جمهورية المستقبل، هل كان سيلجأ إلى مراقبة الأخلاق والاعتماد على القيم أو على الدكتاتور الذي يعتمد بدوره على الجيش الشعبي القوي؟.

إن الإجابة عن هذا السؤال لا نجدها عند سانت جوست بصورة مباشرة. ولكن الدكتاتور كما يتصوره يجب أن لايكون ممثلاً لصورة الطاغية التقليدي الذي يسيطر على كل شيء، وإنما يجب أن يكون بمثابة الضمان للقوة والقيم، وهو الذي بدوره يمارس الرقابة الدقيقة. وقبل أن يتحمل الشعب المسئولية وأن تكون له الجرأة فإنه يمكن ان يتأتى له ذلك من خلال تربية شخصية قيادية، وهذا القائد يحتاج إلى حماية، ولكن ليس بمعنى طفل الدولة المدلل، بل هي حماية المواطنين بعضهم البعض، «إن الإقناع والمعاملة الحسنة للجيش والدفاع البري

والشعب يجعل مبادىء الثقة والتحرر ثابته. وأكثر تعلقاً بها عند هؤلاء الثلاثة...

وهذا النص المأخوذ من كتاب القائد كلاوزينتز Clausewiz وجد مصداقيته في جماهيرية العقيد القذافي بعد 150 سنة. ونحن لا نعرف القذافي كقائد معركة - خاصة وإنه خاض ثورة بيضاء - ولكننا مع هذا نراه على قمة التنظيم العسكري، ولم تكن وظيفته العسكرية إلاّ عاملاً مكملاً ومدعماً لنشاطه وقيادته.

الشعب الليبي ليس شعباً عدوانياً بل هو شعب مسالم، ولكن هل يسمح لهذا الشعب أن يحمى السلام وراء حدوده وفي مياه البحر المتوسط؟!. هدد الاسطول الأمريكي الشعب الليبي أكثر من مرة عن طريق الساحل الأفريقي. ولكن إذا كان الصراع في العالم العربي لا يمثل الحرب المستمرة ولا يمكنه أن يقود إلى حالات خطيرة بحيث يؤدى الصراع بين القوى الكبرى إلى الضغط على الدول الصغرى، وربما يقع التهديد من الدول الكبرى إلى تهديد حقيقي لإرغام الدول الصغرى.

وفي الفقرة الرابعة من وثيقة السلطة الشعبية لسنة 1977 تقول بأن الدفاع عن الوطن مسئولية كل مواطن ومواطنة وعلى الشعب أن يكون مسلحاً عن طريق قانون ينظم التدريب العسكري العام.

. ومن البديهي أن يكون التدريب العسكرى مسئولية «كل مواطن ومواطنة» وهكذا بعد الحرب العالمية الثانية دخلت المرأة في الخدمة العسكرية عند كل من الطرفين المتناحرين. وبغض النظر عن ممرضات الصليب الأحمر تجلس النساء العسكريات كمساعدات مكاتب الضباط سواء على الحدود أو في الأماكن البعيدة وكذلك الأمر في الجيش السوفييتي والدفاع الشعبي كانت المرأة مسلحة، وهذا ما ينطبق على نشاط المقاومة الفرنسية إذ بفضل شجاعة المرأة الفرنسية مهدرة دمها استطاعت أن تقمع لعبة الجيش الألماني والمخربين وإن تهزمهم هزيمة نكراء.

وربما كان نشاط المخبرات الفرنسيات لا يتطابق ورأى سانت جوست، وليست القضية هو أن يعطى للبنات والنساء الأسلحة أو يستخدموا كجواسيس بل الواجب الأساسي للمرأة هو العمل البيتي والأمومة هي أعلى قيمة لها. ولعل

سانت جوست لم يفكر قط في شجاعة المواطنات الفرنسيات مثل جين دارك jeanm D.arc التي كافحت ضد الانجليز كما فعلت الثورة بعد 150 سنة. أم انه رأى في صغره الفلاحة الجاهلة من لـوترنجين lothringen التي لا تعـرف إلاّ الأساطير الصوفية التي تتحدث عن السماء والسيدة مريم وخلافهما حول فرنسا والملك. إن زميله في الكفاح الضابط اليعقوبي لازاركارنو lazaere carnot عايش الثورة وفي سنة 1820 كتب عن راعية الغنم من قرية دومريمى domremy قصيدة قال فيها:

ولكن الله الذي منحها القداسة.

سمح بسقوطها كبطلة في يد الأعداء

ولكن كانت أثناء الحرب طفلة ويقول عنها الانجليز من نفس مـواطني المنطقة انها في سنة 1143 أحرقت كمومسة وفي عصرنا أصبحت مقدسة عن طريق الكنيسة الرومانية لأن حقيقتها ليست مجرد هذا التجسيم الأرضي المادي باعتبارها كمواطنة مضحية.

وعنـدما تفجـرت الثورة الفـرنسية هـرع المواطنـون بمسدسـاتهم حول أحزمتهم إلى القصر الملكي وكان من بينهم العديد من النساء والبنات ومن كل الطبقات والمتحمسات للثورة. ولكن لم يقم أحـد بتدريب أو تنـظيم الفيالق النسائية وكما هو الحال في الماضي فإن المرأة المصاحبة للجيش والصابرة هي البائعة.

اليوم توجد في دول كبيرة وحدات من الجيش النسائي اللواتى ينضمن إلى الجيش بمحض ارادتهن، ولكن هنـاك أصوات معـارضـة تـرى أن الخـدمـة العسكرية معارضة لإنوثة المرأة، وهذا الاعتراض بالنسبة للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر لايزال مقبول على الإطلاق لأن المطالبة بالمساواة التامة جعلت المرأة تأخذ بأية وظيفة تكـون قادرة عليهـا من الناحيـة الفزيـائية ولكن بعض الوظائف والتي لا تقل صعوبة عن الخدمة العسكرية وذلك مثل قيادة الشاحنات وتدريس الرياضة ومزاولة الفلاحة فإن صعوبة مثل هذه الوظائف لا يوجد خلاف حولها.

في ابريل سنة 1982 القى قائد الثورة القذافي خطاباً أمام جمع من طلبة

وطالبات الثانويات الليبية، وطلب في هذا الخطاب من البنات الدخول في الاكاديمية العسكرية لكى يتمكنوا من التدريب الجيد على السلاح البري والبحري والجوي وهو الأمر الذى يمكنهم من أداء واجبهم على الوجه الأكمل.

ولا يرى القذافي في الخدمة العسكرية للمرأة على أن ذلك معارض لإنوثتها ولا تعني تحديد وجودها الطبيعي وبإمكان المرأة بعد سنوات من الخدمة العسكرية أن تترك العمل وتتزوج أو أن تشتغل خارج البيت كأولئك النساء في كافة بقاع العالم اللواتى يشكلن نسبة ما من السكان وهذا لا يتناقض مع مفهوم الأمومة كما في الفصل الثالث من الكتاب الأخضر ومع هذا فأن هناك من النساء لا يلدن مع رغبتهن في الإنجاب وربما يرجع الأمر في ذلك إلى أسباب سيكولوجية أو عدم توفيق في اختيار الشرعية. وفي مثل هذه الحالات قد تتخذ الخدمة العسكرية شكلاً فعالاً لتحقيق ذات المرأة. ومن الجوانب الأُخرى التي يراها القذافي تقتضي تعبئة النساء للخدمة ويقول بهذا الصدد «عندما كان الرجل في الزمان القديم يعلم بأنه سيموت فإنه كان يقتل زوجته بنفسه وكذلك يفعل بإبنته وأخته حتى لا يتركهن للعدو. ونحن لا نستطيع ان نترك نساءنا متخلفات وبدون قدرة، لأن ذلك يتعارض مع كرامتنا، وحينما يأتي العدو فعليهن أن يدافعن كمناضلات حتى النصر أو الشهادة».

وباستعراضنا للقوانين الأخلاقية المتشددة في الزمن القديم، فإننا نجد في عبارات سانت جوست الدرامية دلالات توحي بأنه خبير بتاريخ روما، وكذلك فإنه بالتاكيد يعرف عن مصير النساء والبنات العربيات وغيرهن قديماً. تلك النساء والبنات اللواتى كنّ يقعن تحت رحمة المرتزقة من الجنود الرومانيين بدون حماية. ولكن هذا الأمر بالنسبة للقذافي ليس مجرد دروس ونصوص تتحدث عن الماضى، بل الأمر يشكل خطراً بالنسبة للحاضر ولهذا فإننا نجد كل الليبيات مستعدات للحرب، ولن يتعرضن لمثل ذاك المصير في المستقبل.

إن عدد الصفحات الثلاثين لخطاب، قائد الثورة فانها تبدو قصيرة جداً اثناء القراءة مهما كان الاسلوب والمضمون ولكن إذا ما علمنا بأن القذافي تكلم لأولئك الطلبة مباشرة بما له من قوة تأثير شخصي مشجعاً أياهم بكل ما يستطيع فإن هذا سيؤدى إلى إقناعهم.

ينتقد القذافي الآباء الذين لا يزالون يأخذون بالنمط القديم، من حيث أن المرأة لا مكان لها في الحياة العامة، ولا تتحمل المسئولية السياسية وعليها الا تتدخل في أمور الرجال ويقول القذافي: العدو لا يفرق بين الرجل والمرأة والطفل والطفلة لأن رصاصه موجه للجميع ولا يستطيع أحد أن يحمي نفسه من ذلك ويقول أيضاً: لقد رأيت النساء والمحجبات في الأردن يقفن أمام العدو رافعات أيديهن، بينما كان العدو يستعد رجالاً ونساءً وفي أثناء الحرب يهيئون جيشاً أقوى من الجيش المصري.

كما عقد القذافي مقارنة بين قوة الجيش لشعب اسرائيل الصغير المكون من مليونين بالشعب العربي المكون من عشرات الملايين وهو أضعف بكثير في عدد جيشه وعدته من جيش الكيان الصهيوني. وهنا يكمن الخطر على الشعب الليبي وعليه أن يسخّر كل طاقاته لإزالة اللبس القائم على أن الشعب الصغير لا يقدر أن يقاوم أمام الشعب الكبير في الدفاع اثناء الحرب.

وبعبارات جذابة وصف القذافي واجب المرأة العسكري على أنه مقدس ووصف البنات الصغار على إنهن راهبات ثوريات، ويستشهد بالقرآن الكريم لكى يستجيبوا للجهاد رجالاً ونساءً وكباراً وصغاراً.

ويقول قائد الثورة إننا نتعرض لحملة صليبية عصرية تقودها أمريكا. ولهذا يرى معمر القذافي الجهاد المقدس ضد الحملة الصليبية واجب على كل ليبي وليبية إذن فهو رجل القوة الذى يحترم المرأة كشريك قوي ويستطرد في هذا السياق قائلاً: «إنه من الأفضل أن يموت ذلك الكائن البشري الذى يشكي ويبكي عندما يتعرض للظلم».

وعلى ليبيا ان تعي الخطر الكامن للحرب، وذلك بسبب وقوعها كبلد صغير بين مجالات النفوذ للدول الكبرى. ولهذا لا يجب تربية مواطنيها على الضعف ولكن: أليست الطبيعة هي التي تربي إعوجاج تلك النباتات غير المتمتعة بالقوة الكامنة للدفاع عن الخير الحيوي لنمائها؟ الا يستعمل كل حيوان أى سلاح ملائم كالأسنان والمخالب والأشواك بغرض الثبات أمام الذى أقوى منه؟ لا شك إن المحافظة على الحياة هي بمثابة الحق الطبيعي لكل مخلوق. وإذا كان الحيوان يحمي نفسه وصغاره في المغارة، فإن البشر الذين يشكلون

شعباً لا يجوز لهم التهاون في الدفاع عن القيم الروحية والأخلاقية والاقتصادية التي تجمعهم، وعلاوة على النساء فإن من واجب الناشئين أيضاً الا يهملوا ذلك التحدي الكبير الذى من المحتمل أن يواجه الشعب الليبي في كل وقت، فشباب اليوم سيتحملون المسئولية أمام بناتهم وأولادهم في المستقبل إذا لم يستطيعوا منحهم وطناً مستقلاً كما خلفه لهم قائد الثورة. ولهذا تمارس الناشئة من البنين والبنات تدريبات عسكرية وتتدرب هذه الناشئة على استخدام السلاح وتطبيق الأساليب التقنية المستعملة في شن الحروب العصرية، ولا يستثنى من ذلك أطفال قائد الثورة أنفسهم حيث بدأ أكبرهم يتلقى تدريبات عسكرية، ولا يعاملون بصورة خاصة في معسكرات التدريب بل ينظر اليهم كبقية الليبيين وسط أقرانهم وزملائهم من نفس الجيل الناشىء. لقد ولت تلك الأزمنة التي كان أطفال الطبقة الارستقراطية فيها يحصلون على رتب الضباط وقادة الوحدات، حتى قبل ان يتعلموا القراءة والكتابة. ففي الجيوش الشعبية العصرية لا يُرْقَ الجندي إلاّ بناءً على اجتهاده وذكائه، وليس بالاعتماد على منصب أبيه أو مولده وثروته. ويدرك ذلك أصغر الجنود سناً، مما يجعله يخضع لمن هو أعلى منه رتبة وبدون حسد بل توجد المنافسات الإيجابية بين الجنود للترقية فيما بينهم.

ولا يمكن تطبيق المساواة التامة «من حيث الرتب» في الجيش، فإلغاء الرتب العسكرية وما يتبعها من مسئوليات وإنهاء واجب الطاعة ـ كل ذلك يؤدى إلى مظاهر فوضوية تتسبب في حل التنظيم العسكري بكامله. وهكذا فمن الضروري أن يتحلى الآمر بموهبة قيادة الناس حتى لا يتم التشكيك باسلوب التعامل الديمقراطي داخل الجيش. وعلى الجندي البسيط أن لا يعتبر الأمر الموجّه من قبل رئيسه طلباً قسرياً أو تكبراً، بل ضرورة من ضرورات النجاح العسكري. أما الآمر فعليه الا يفكر بأن الجندي ما هو إلاّ جهاز اوتوماتيكي يمكنه وصله أو فصله كما يحلو له. بل لا يجوز للآمر أن يطلب من الجندي أكثر أو أقل مما يطلب من نفسه.

ويتوجب على الجيش الشعبي المنبثق من ثورة، عليه أن يتحلي بنوعية متميزة من الأخلاق العالية وذلك من أجل المحافظة على المنجزات الاجتماعية التي كانت تمثل هدف هذه الثورة منذ بدايتها.

ومن خلال هذا التحول الجذرى الذى شهدته ليبيا أى منذ الفاتح من سبتمبر سنة 1969 فإنها أصبحت محط أنظار العالم أو هدفاً للهجوم، ولا يؤدى إلى مثل هذه النتيجة ذلك التحول البطيء وغير المرئي نحو الديمقراطية من خلال خطوات صغيرة في مدة طويلة، وفي هذا الإطار فإن كل تغيير في السياسة الداخلية وخاصة فيما يتعلق بتسليح وتقوية جيش كان متميز بضعف البنية والتنظيم - إن كل تغيير على هذا الوجه سيراقب بريبة وبعداء سافر من قبل البعض، ومنذ البداية توبعت ثورة العقيد القذافي بنظرات حادة من قبل الرجعية كما حاولت الامبريالية لعدة مرات وبكل الوسائل عزل هذا البلد الصغير سياسياً، كما حاولت أن تقضى على الدولة من الداخل عبر الدعاية الموجهة من الخارج. ولكن الرجال والنساء في ليبيا يدركون الخطر وسيتمسكون دائماً بمبدأ الجماهيرية الأساسي الذي يتضمن أن شعباً مسلحاً لا يمكن أن يحاصر أو يجوع أو ينهزم.

وانطلاقاً من هذه المعطيات، فإن الأمر يتعلق بتجميد العسكرية وبتجميد الحرب أيضاً إذا كان بيت القصيد هو امتلاك الشعب للسلاح. فلم يعد الجيش المهني هو الوحيد المكلف بحماية الدولة والوطن. وكل مواطن يتمتع بالحق ويلتزم بالواجب لدعم القوات النظامية في الدفاع عن البلاد، ولن يبدأ قائد الثورة بحرب هجومية أبداً ولكنه ملتزم بتهيئة الشعب الليبي بكاملة على الاستعداد الدائم داخل حدوده للمواجهة المحتملة.

لقد اعلن سانت جوست أن «الشعب الفرنسي يؤيّد حرية العالم» ويلبي العقيد القذافي بطريقته الخاصة هذه المهمة بكل اعتزاز كما في محاولاته لتحرير منطقة جنوب البحر المتوسط ودول شمال أفريقيا من كل تهديد عسكرى. وهو يعلم أن له خصوماً يتابعون حركته وتوجهه في المنطقة العربية كما يدرك جيداً أن الأحلاف غير جديرة بالثقة ولا يمكن الاعتماد عليها لأنها لا تستطيع تنفيذ مضامين التأكيدات والتعهدات المقطوعة مسبقاً لأى سبب من الأسباب وهو يدرك جيداً أن العامل المساعد في توطيد خطواته الحاسمة في اتباع نهجه التاريخي هو ولاء الشعب الجماهيري الذي اتاح له أن يتسلم بكل ثقة الأسحلة بأيادية.

«الثـورة يجـب أن تكـون متديـنة»

«الثورة يجب أن تكون متدينة»

هناك العديد من الوثائق المعروفة والمناقشات تدل على مبدأ هام طرحه معمر القذافي: امتداد الله إلى الثورة.

إن مخططه الرامي إلى خلق نظام جديد للدولة وللمجتمع لا يقتصر فقط على التقدم والرفاهية، لأن. . . «إذا نريد نحن تأسيس حضارة مادية، يجب أن تكون مترافقة مع الحضارة الروحية».

إن هذه الحضارة الروحية تشير إلى الدور الذي تلعبه الأخلاق ويلعبه الدين في ثورته.

ويضيف القذافي قائلاً:

«الشريعة الطبيعية لأي مجتمع هي العرف أو الدين. . أى محاولة أخرى لا يجاد شريعة لأى مجتمع خارجه عن هذين المصدرين هي محاولة باطلة وغير منطقية. . نحن نعمل العمل الصالح ونمتنع عن الباطل، لأننا نخاف الله ونعتقد بأننا نحاكم من قبله وأننا لا نستطيع التهرب منه. . إن منبع كل الحركات الثورية

هـو الورع . . إن الابتعـاد عن الدين والقـانون الـربـانى . . يعني السعى إلى الدكتاتورية . .

إن الثورة الليبية كانت ثورة وطنية ذات اتجاه اشتراكي، لكنها في نفس الوقت ثورة إسلامية، والقذافي يجد في القرآن عدم الفصل بين الثورة والورع، ويقول في ذلك:

«الإسلام سلاحنا في المعركة السياسية، لأنه دين الحرية».

ويستطرد بثقة كاملة قائلاً:

«إن ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة هي القاعدة الحقة والاساسية لكل المسلمين».

وبهذا تختلف ثورة القذافي بوضوح كبير عن حركات التحرر اليسارية التي ترى في الله «عنصر ازعاج ومضايقة» وإن سلطة الله على نفسية الشعب تتنافس مع سلطة الحزب.

إن الحركات الثورية الماركسية . . مثلاً ـ في دول المعسكر الشيوعي في شرق اوربا، تسير على مبدىء «الدين أفيون الشعوب» والغاء الله كأعلى مرجع، حتى يستطيعوا فرض نظام الحزب على البشر وخلق دين بديل.

صحيح أن بعض هذه الدول بدأت تخفف بعض الشيء معاداتها للدين، وبدأت السماح ببناء كنائس جديدة والسماح كذلك لرجال الدين القيام بعملهم بصورة علنية ـ لكن تحت رقابة عيون الحزب اليقظة، لكن عدم الاعتقاد بالله يبقي مع ذلك جزءاً اساسياً من الماركسية ـ اللينينية.

يجب على قادة الثورات في امريكا اللاتينية اظهار المزيد من التسامح مع ممارسة الطقوس الدينية، لأن الورع والتدين في هذه المنطقة يضرب جذوره في كل طبقات المجتمع وهيئاته السياسية، إن اصحاب الأرض الاغنياء والفقراء من العمال يحملون إرث الكاثوليكية ـ الاسبانية على طريقتهم الخاصة سواء في احتفالات دينية فخمة أو بالصلاة الهادئة في اكواخ الفقراء المستغلين، حيث إن الدين بالنسبة لهؤلاء يعبر عن الأمل.

كانت الكنيسة الرسمية في فرنسا عام 1789 ـ وليس في فرنسا فقط ـ واقفة إلى جانب الحكم.

رجال الدين والنبلاء كانوا يعملون مع بعضهم البعض بشكل وثيق وان قسيس القرية البسيط، الذى كانت كلمات المسيح تعني له أكثر بكثير من بعض القساوسة في أبهتهم الذهبية، كان يطالب، وغالباً ما يرفض طلبه، من الاقطاعيين بعض التسهيلات لأطفال الفقراء في القرية.

إن هذا الاعتقاد الصادق بالله والرحمة المسيحية التي كان يعبر عنها رجال الدين في ملابسهم السوداء الفقيرة، قد ابرز في ذلك الوقت صورة رجل الدين ـ العامل المكافح، الذى نراه اليوم في صورة «علم اللاهوت ـ الداعى للتحرير» الذى يساند شعوب امريكا اللاتينية المقهورة ضد حكامها.

إن قساوسة القرى الصغار ذوي الدخول الضعيفة في فرنسا لم يحصلوا على مساندة الحكومة ولا مساعدات مادية من جمعيات خيرية كما نعرفها اليوم.

والنداءات التي كانت توجه إلى رجال الدين الكبار كانت نادراً ما تحقق نجاحاً، رجال الدين الكبار هؤلاء كانوا يعيشون في القصور الفخمة ـ وفي أوقات كثيرة برفقة النساء ـ ويأكلون على موائد عامرة بالمأكولات والمشروبات، استغلوا علاقاتهم الجيدة بالمسيطرين على البلد لصالحهم الخاص.

لهذا فإنه ليس غريباً في فترة الانتقال من عهد الاقطاع إلى عهد الثورة ابتعاد قسم من الشعب الفرنسي عن رجال الدين واستغلال هذا الوضع من قبل بعض المجموعات المتطرفة ذات الاتجاهات غير الدينية والتأثير على الناس الذّين خابت آمالها من رجال الدين.

بالاضافة إلى ذلك هناك عامل آخر لعب دوراً في هذا الاتجاه إلا وهو امتناع الكثير من رجال الدين في مختلف الدرجات الكنسية اداء قسم اليمين على الدستور الجمهورى، هؤلاء اعتقدوا بأن موقفهم هذا صحيح، ولهذا امتنعوا من التعاون مع «من لا يعترفون بالله وقتلة الملك». ربما كان هذا موقفاً خاطئاً، وربما لو بقي رجال الدين في اماكنهم لا ستطاعوا ايجاد علاقة جديدة ومثمرة بين الكنيسة والشعب. وعلاقة ربما ساعدت على إزالة بعض تأنيب الضمير.

الآن فقد الشعب الفرنسي الورع كمنبع للثورة - حسب وجهة نظر القذافي - وترك محلاً فارغاً بدله، أدى إلى عدم رضاء الناس رغم كل انجازات الثورة. ولهذا حاولت الحكومة الجمهورية تقديم رمز للشعب، ليست له علاقة بالله والتقاليد المسيحية بل نتاج فكري لعصر الاستكشافات.

لكن الجماهير الفرنسية التي بقت على ورعها وتدينها خاصة الناس البسطاء الذين لا يعرفون شيئاً عن الفلسفة والعلوم الطبيعية، لم تعرف ماذا تعمل بهذه الآلهة وهي لم تكن في نظرهم بديلاً عن السيدة مريم العذراء التي تحمل المسيح بين ذراعيها، الكثيرين من هؤلاء الفقراء لم يعرفوا طيلة حياتهم الرتيبة شيئاً سوى الاحتفالات الكنسية التى تصاحبها موسيقى الارغل الجميلة، البخور وحلة الانوار.

وكانوا يلبسون في مثل هذه المناسبات اللباس الوحيد الجيد لديهم وكانوا يجلسون بعد انتهاء القداس مع جيرانهم مع كأس من النبيذ.

إن هذا الخليط من الورع وحب الحياة لا يمكن انتزاعه من الناس في الاقطار الكاثوليكية خاصة من الفلاحين المعدومين، وكانت الكنيسة تعتبر بالنسبة إليهم البيت الثاني الأجمل.

لأن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا يعرفون أو يملكون شيئاً آخر خارج اكواخهم الفقيرة وأرض زراعية صغيرة، صور الاشكال الانجيلية كانت تعني لديهم فكرة الحياة، كان للقديسين والشهداء اسماء وتاريخ حافل بالاثارة، وكان الفنانون يحاولون برسومهم اثارة خيال الناس، لهذا فأن فكرة عبادة آلهة الحكمة التي هي من صنع المثقفين لم تلق استجابة من الجماهير العريضة.

لقد عرف روبسبير، أكثر من بقية قادة اليعاقبة، بأن الإنسان حتى وهو خارج نطاق القيود الكنسية وعقائدها يطالب بعزاء الخلود، ولهذا كانت لديه الشجاعة الكافية، الذهاب خطوةأخرى في هذا المجال واعطاء الشعب إلاهاًا مرة أخرى، لكن هذا تم بشكل حل مرتبك مما أدى إلى رفضه من قبل كل من المسيحين وغير المؤمنين.

وكان هذا الحل هو فكرة «الذات العلية وخلود الروح التي تطالب

باستمرار غير منقطع بالعدالة، وهي لذلك اجتماعية وجمهورية. وانا لا اعرف مشرع يستطيع ابداً جعل الالحاد وطنياً».

بهذه الجمل وغيرها اعلن روبسبير، في خطبة طويلة أمام الجمعية الوطنية «السماح» للقدير دخول الدستور الفرنسي لكنه لم يذكر ولا كلمة واحدة للسيد المسيح وتحدث بصورة غير جيدة عن رجال الدين.

وقال «ما هو البعد بين إلّه الطبيعة وإلّه رجال الدين هم خلقوا رباً بالصورة التي يريدونها، وجعلوا منه حسوداً متقلباً ووحشياً».

وقد رأى روبسبير الطبيعة كرجال دين بالنسبة للآلهة الجمهورية المعترف بها، والكون كمعبد وفضيلة المواطنين كدين ممارس وبدلاً من المسيح الرب، والوحدة بين الأب والابن والروح والقدس الآن يوجد فقط «الذات العلية التي ليست لها مواصفات شخصية».

والتي لا يمكن الصاق أية عقيدة بها ويحق لكل فرنسي بغض النظر عن ديانته السابقة احترام وتقدير هذه «الذات العلية» هذا الرب الذى بدون بيت ورجال دين، هو رب جان جاك روسو،' وكذلك وبعد 150 سنة، تحت ظل الاشتراكية الالمانية الوطنية (النازية) الذين قالوا عن انفسهم بانهم «مؤمنين بالله» لكنهم رفضوا أن يكونوا مسيحين، لأن المسيح «ملك اليهود».

في 8 يونيو 1794، أي قبل 7 اسابيع من اعدامه، عمل روبسبير احتفالاً مهيباً في باريس للذات العلية، صورة معروفة تظهر رجلاً منزه عن كل رشوة، ببدلة سهرة زرقاء بلون السماء ذات شعر مصفف بعناية ماسكاً بيده باقة ورد، لكن حدثت بعض الاخطاء اثناء هذا الاحتفال ذو التكلفة العالية: تأخر روبسبير ولهذا أنتقد بشدة، ولقد سقط «تمثال الالحاد» بسبب خلل فني وهكذا ضحك الجمهور من هذا الحدث.

إن هذا الاحتفال المظهرى الذى حضرت له حكومة الثورة على عجل، لم يكن بمثل الصورة التي يعرفها الشعب عن الاحتفالات الدينية، ولقد انتهى هذا اليوم بالنسبة لروبسبير الذى وضع فيه آمالاً كبيرة بخيبة أمل، ولقد شعر أثناء

الاحتفال بزيادة العداء له في كل مكان، وربما سمع ما همس به أحد زملائه للاخر «لا يكفيه أن أصبح دكتاتوراً والآن يريد أن يصبح إلاهاً أيضاً».

كان سانت جوست في خلف الاحداث اثناء هذا الاحتفال، حيث كان في بداية هذا الصيف في زيارة تفقدية للجيش الشمالي توجه إلى باريس لبضعة أيام فقط، ولقد وافق روبسبير عند الاحتفال بـ «الذات العلية» إن بعض ما كتبه عن «المؤسسات الجمهورية» احتوت على جملة مدهشة.

«.. ربى، حامى البراءة والحقيقة، عندما قدُتنى وسط بعض الاشرار، اردت بدون شك كشفهم».

ومثار الدهشة هنا يرجع إلى أن سانت جوست يخاطب هنا الله شخصياً، مثلما هو الحال الطبيعي لأى مؤمن مسيحياً كان أو مسلماً، لأن المؤمن عندما يصلي ويطلب إلى الله أو يوجه له شكره، يقوم بمخاطبة الله كأب في شكل روحي.

والإنسان المؤمن يثق بالله ويأمل منه ويطلب إليه تحقيق رغباته أو يشكو له من المآسى التي لم يصنعها هو.

الله بالنسبة للمؤمن هو المرافق لوجوده الأرضي وفي الدنيا الآخرة، وهو مصدر السكينة والاستقرار النفسي وهو (أى الله جل وجلاله) كل ما لا يمكن أن تمثله الفكرة المجردة «التجريدية». إن مصطلح «الجوهر الأعلى» المستعمل من قبل اليعقوبيين بموجب مرسوم ومصطلح «الدائم السرمدي» وفقاً لسانت جوست لا يتماثل مع ماهية الإله الحي لدى المسيحيين ـ ولا تستطيع الروح البشرية أن تصل إلى هذا الجوهر عن طريق البحث والتساؤل. ولا تستطيع هذه الروح أن تصل إلى هذا الجوهر عبر الاستعانة بمبحث المعرفة الشافية المنقذة أو الكلمات النبوية.

وقد تطرق سانت جوست في المسألة العاشرة إلى بعض المؤسسات الأخلاقية المتعلقة بالثوابث ولخصها كما يلي:

«الشعب الفرنسي يعترف بالجوهر الأعلى وعدم موت الروح» وكافة أنواع العبادات متاحة ومصونة ولكن الاحالة الدينية ليست مصرحة في أى عقد مدني.

وكل ممارسة ضمن منصب إداري يتم الحديث فيها حول الدين تعتبر غير صالحة «أي لاغية». المعابد العامة مفتوحة لكل عباده .

لا يجوز لراهب ضمن أى دين أن يظهر علناً من خلال الدلائل الخارجية المشيرة إلى مرتبته الدينية، وإلا فإنه سيعاقب بالحرمان. وإذا كان سانت جوست قد نزع عبر ذلك أيضاً كل أساس لقانون الدولة من خدمة الجوهر الأعلى، فإنه يلعب بذلك دوراً أساسياً في عالم الرمزيات المتعلقة بالجمهوريين لدولة المستقبل.

«ويقرأ الشعب في المعبد كل صباح نص الصلوات لعبادة الله. وتبدأ كل الاحتفالات الرسمية بهذه الصلوات ويحتفل بإعلان القوانين العامة في هذا المعبد».

وهنالك تناقض فريد: إذ لا يجوز لأى راهب أن يظهر نفسه علناً ولا يسمح أن تطبق ممارسات قانونية مثل الزواج باسم الإله. ولكن المعبد باعتباره مركزاً لنوع من العبادة والتصوف وفقاً لنموذج العهود القديمة ـ هذا المعبد يجب أن يعتنى به من قبل الرهبان مع المحافظة على الخشوع اللائق بالمعبد، وانه من واجب الشعب أن يتذكر الإله الدائم في أيام احتفالات الجمهوريين في هذا المعبد.

بعد ذلك هناك تعداد لأشهر السنة حسب التقويم الجديد حيث يبدأ اليوم الأول دائماً بالآلهة بالترابط مع المعنى الرمزى مثل: الشباب، الشيخوخة، حب الزوجة والصداقة. . إلخ

في مثل هذا التصور الساذج للدين الطبيعي الذي تصوره سانت جوست، ترد جملة تبعث على التفكير في التصور الأخلاقي للمسيحين أو المسلمين.

«الروح الخالدة لأولئك، الذين ماتوا من أجل الوطن. . ، المواطنين الصالحين، الذين احبوا آبائهم وامهاتهم والذين لم يتركوهم قط، تسكن في حضن الأبدية».

بالاضافة إلى ذلك قال سانت جوست في هذا الجزء العاشر. . «بأن الشعب الفرنسي قدس أطفاله للخالد»، وهذا يعني التحدث عن الحياة الأخرى. .

ويقول هو في الجزء السادس: «الأطفال حتى الخاصة من العمر يجب أن يبقوا مع أمهاتهم وبعد ذلك وحتى الموت هو ملك للجمهورية».

هذا الرجل الشاب، مات مبكراً، ولم يستطع ايجاد حل للتناقض الفكري لديه.

من ناحية كان قد تأثر بالدراسة الكلاسيكية للعصور القديمة ومعتقداتها الوثنية، كما تأثر أيضاً بالجو الرومانسي وحياة حبه الأول.

من ناحية أخرى فقد حصل في مستقبل شبابه على موقع سلطة فرضت عليه مواجهة الواقع القاسي.

ومن ضمن المواجهات، كانت مواجهة الكنيسة الكاثوليكية التي على رأسها ممثلون رجعيون وغرباء عن الشعب.

وتدخلت هنا قليلاً الخبرات الحقيقية والأحكام المسبقة، لكن وبأي حال لم يكن بإمكان الشباب الثوريين الموافقة وقبول وجود قوة أخرى مثل الكنيسة القوية والغنية، تعرقل تقدم الثورة.

ولذلك وجب عليهم ايجاد دين بديل، ليست له سيطرة ونفوذ على الحياة السياسية وتربية المواطنين، لكن في نفس الوقت تغيرت علاقاتهم الداخلية بالله.

من المحتمل أنه كان في استطاعة مفكر مثل سانت جوست، توحيد فكرة الدولة التي يريدها مع القيم الروحية للكنيسة في فرنسا والتوفيق بين تقاليد الكنيسة وبين أخلاق المواطنة التي يرغب فيها.

لكن من الواضح إن مبدأ اليعاقية الصارم الذى كان يعتنقه منعه من ايجاد جذر من جذور الاشتراكية لدى المسيحين الأوائل.

لقد قال خصم سانت جوست السياسي (Frage) وهو يسأله عن عمره، عندما كان مع صديقه دانتون ماثلين أمام محكمة الثورة:

«عمرك 33 سنة، مثل عمر المسيح عندما اعدم، عمر خطير لثوري».

إن وصف المسيح ابن الله، بالثورية.. كلام لا يقبله المسيحي في ذلك الوقت أما في عالمنا المعاصر فليس هناك غضاضة من وصف المسيح «بالشيوعي الأول» وفي عصر علم اللاهوت الداعي للتحرر لا يمكن تقديم البراهين ببساطة، بأن المسيح وعد المؤمنين بملكوت السماء بعد الموت، بينما الشيوعية المادية توعد الناس بتحقيق «الجنة على الأرض».

إن رجال الدين في امريكا اللاتينية العاملين في سبيل حقوق المظلومين يرون في واجبهم هذا، التزام أمام الله، والأمل في الدنيا الآخرة لا ينفي توزيع الثروة العادل على الأرض.

الكنيسة أصبحت أكثر فأكثر بيتاً مفتوحاً للبشر من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية، بينما قلة قليلة من الماركسين تعتقد، بأن الدين «أفيون» لتمويه عقول الجماهير.

بالنسبة لقائد الثورة المسلم معمر القذافي كان هذا التأثير المتبادل بين الإيمان بالله والاشتراكية واضحاً وطبيعياً منذ البداية وينفذ إلى جميع مجالات الحياة في المجتمع الليبي.

ويقول عن هذا الموضوع في الفصل الأخير من نظريته العالمية الثالثة مايلي:

«القاعدة السليمة هي إن لكل قوم ديناً، والشذوذ هو خلاف ذلك، والشذوذ هذا هو خلق واقعاً غير سليم صار سبباً حقيقياً في نشوب النزاعات داخل الجماعة القومية الواحدة، وليس في حل الانسجام مع القاعدة الطبيعية التي هي لكل أمَة دين حتى ينطبق العامل الاجتماعي مع العامل الديني فيحصل الانسجام وتستقر حياة الجماعات وتقوى وتنمو سليماً».

القذافي لم يكن، كما كانت الثورة الفرنسية سنة 1789م مثقلة تاريخياً بسبب الانقطاع الحاصل بين المسيحين المؤمنين في اوساط الشعب وطبقة

رجال الدين العليا التي كانت تبحث عن دور في الحياة، والتأثير والنفوذ السياسي.

في ثورته الإسلامية تتوحد العناصر الثلاثة: الدين والاشتراكية والقومية، وفي «دولة الجماهير» يشعر كل فرد بصوت تناغم هذه العناصر الثلاثة.

إن الحاجة الروحية للتقرب من الله لا تتناقض مع الحاجات المادية للإنسان.

بالعكس: إن الله يصاحب الإنسان في عمله اليومي في مكان العمل وفي العائلة.

وفي ضوء مبدىء بين الروح الربانية وأصل جميع المواد، يقول القذافي كذلك:

«الأرض ليست ملكاً لاحد، هي ملك الله» وعندما يقوم قائد الثورة بتوزيع أرض بلده للاستفادة الحرة لكل الليبين وعندما يرفع من درجة رفاهية الشعب بواسطة اموال النفط، يعرف هو إن الثروات الطبيعية لا يجب استغلالها بغير حدود ولهذا فانه يستخدم الثروة النفطية بشكل عقلاني، ليس على غرار ما تفعله بعض الدول الصناعية المتطورة في الشرق والغرب.

إن نظريته بخصوص علاقة العمل لا تحل المشاكل في جانبها الاجتماعي فقط، وإنما تظهر أيضاً وجود نغمة دينية بكلمات جميلة: «نرفض أن يكون البشر خدام إلا لله فقط».

معمر القذافي لا يضع الله، كما فعل سانت جوست بالذات العلية كمفهوم ميتافيزيقي فوق الحياة الوطنية، الله ليس إله الفلاسفة، وإنما هو سيد الكون وكذلك الأب الرحيم الذي يعيش في داخل ومع الشعب. ولهذا يجب على الشعب خدمة ربه حسب تعاليم القرآن، إن الحج إلى مكة والصوم في شهر رمضان وصلاة الجماعة في المسجد من أركان الدين.

أما فيما يتعلق بالرياضة فيقول القذافي في الفصل الأخير من كتابة الأخضر، إن ممارسة الرياضة يجب أن تتم من قبل كل الناس: «الرياضة إما

خاصة كالصلاة يقوم بها الإنسان بنفسه وبمفرده حتى داخل حجرة مغلقة، وإما عامة تمارس في الميادين وبشكل جماعي كالصلاة التي تمارس في المعابد بصورة جماعية.

إن النوع الأول من الرياضة يهم الفرد شخصه، أما النوع الثاني فهو يهم كل الشعب يمارسه كله ولا يتركه لاحد يمارسه بالنيابة عنه. . . .

مثلما هو: من غير المعقول أن تدخل الجماهير المعابد لتتفرج على شخص أو مجموعة تصلى دون أن تمارس هي الصلاة.

إن الشراكة من أسس فكرة الدولة عند القذافي، لا وجود لـلا متيازات والاستثناءات، الإنسان الفرد حر بالكامل في التصرف بحياته الخاصة، لكنه لا يستطيع التصادم مع المجتمع.

في جميع المجالات العامة يحق لكل فرد الحصول على نصيبه من الخدمات والتسلية، إن الله حاضر دائماً في كل مكان. . في الحياة والممات وفي الحرب والحب.

المنظر الجميل الذى شاهدته من شرفة فندقى في طرابلس يبقى خالداً في مخيلتي، شاهدت البحر الممتد نحو الشمال ذات اللون الأزرق والمتحد مع قبة السماء، وفي الميناء شاهدت سفن الشحن كشاهد على التجارة العالمية لشعب نشيط وقوى اقتصادياً.

وفي الناحية الشمال من موقعى انتصب برج إضاءة، أما من ناحية اليمين فقد شاهدت جامعاً على اطراف المدينة على الساحل حيث كان المؤذن يؤذن للصلاة.

هذا المنظر يوضح بجلاء كلمات القذافي عن «الحضارة الروحية والمادية» وبصفتي ضيفة من قارة أخرى في بلد تقام فيه الشعائر الدينية في الكنيسة المسيحية بدق الأجراس، شعرت بسعادة هذا الوفاق بين الروح والمادة في ليبيا.

منارة الجامع وبرج الكنيسة. . الاثنان يشيران إلى السماء حتى وإن دارت الأرض إلى سماء كل المؤمنين في كل الأديان والأجناس.

سانت جوست رغب بتحطيم كل ابراج الكنائس التي تنتصب مشيرة برأسها إلى السماء، كما فعل مرة عندما أمر بتحطيم تماثيل احدى الكنائس في الشمال الفرنسي، لم يكن راغباً في مشاهدة بناء له علاقة رمزية مع الكنيسة يرتفع عالياً فوق المباني الجمهورية.

بالتأكيد إن الله موجود في كل مكان. . في كل شجرة، في كل وردة، في كل فراشة وموجود كذلك في صورة غير مرئية، في حبنا للإنسان الآخر، في الموسيقى والشعر في كل تعبير روحى.

والإنسان حر في أداء الشعائر الدينية في هدوء، الكنيسة المسيحية والجامع الإسلامى مكانان للعبادة، صنعهما الإنسان من أجل عبادة الخالق، الذى نشكره على وجودنا.

لكن سانت جوست لم يكن راغباً في القديسيين أو الانبياء أو الصور أو التماثيل ـ كان يريد اعطاء الشعب ذلك المعبد فقط، الذى تشتعل فيه الشعلة الخالدة، آله معالمه غير واضحة.

لقد قام المسؤولون في هذا الوقت بتأسيس أماكن يمكن للشعب تقديم الشكاوى والتظلمات إليها وهي: منتدى اليعاقبة والمبنى البلدي، لكن ورغم ذلك لم يستطع هؤلاء ابعاد الله من روح الإنسان الذى هو جزء منه.

وعندما كان دانتون (Danton) ينتظر محاكمته وإعدامه في نفس السجن. الذي وجب فيه على بعض المواطنين قبله وبعده السير فيه، تذكر في مثل هذه الأيام المظلمة بأنه شارك في مسئولية تشكيل محكمة الثورة.

وقال: «ابتهل إلى الله واطلب إلى البشر مسامحتي لم أكن أعرف بذلك بأني خلقت بلاءً للبشر».

لم يكن احداً يعرف في ذلك الوقت بأن مثل هذه المحكمة التي شكلت لمحاكمة الخونة واعداء الثورة، تصبح في ظل الارهاب جهازاً للقتل والافناء الأعمى مستخدمة المقصلة في تنفيذ أحكامها.

إن الحقد وحب الانتقام لأسباب شخصية وجدا في هذه المحكمة وتحت ستار الوطنية دائماً أذنا صاغية وتنفيذاً سريعاً.

حتى سانت جوست لم يستطع روحياً التخلص الكامل من الاعتقاد الذى تـربي عليه في طفـولته، وعنـدما كـان يخاطب الله كحـامي البراءة والـطهارة الحقيقية، لم يكن يفعل ذلك من باب الكلام الأدبى المنمق وأيضاً فان مثل هذا الكلام لم يكن موجهاً إلى «فكرة الذات العلية» وإن ادعائه القائل بأنه ارسل للحياة من أجل كشف المذنبين هذا الادعاء يعتمد على العلاقة الخاصة المباشرة بينه وبين الخالق.

وكان سانت جوست في شبابه المبكر مهتم أكثر بتاريخ روما واثينـا من قصص وحكايات العصور الوسطى.

لكن ربما عاش في نفس هـذا الشاب، الـذى ولد وعـاش في الشمال الفرنسي الذي كان غالباً مسرحاً للحروب.

رومانسية الفرسان القديمة المكونة من الشعراء والمغنين الذين قدموا من الساحل الانكليزي إلى فرنسا ومنها إلى اسبانيا والذين كانوا ينشدون الأغاني الجميلة المعبرة عن قصص البطولة والحب.

وربمـا قـرأ سـانت جـوست في صبـاه عن حكـايـة الملك آرتـوس (Artos)
واختار لنفسه رمزاً يمثل واحداً من هؤلاء الأبطال أو فرسان المعابد وظهر أخيراً نوع من الاندماج في شخصيته بصفته محارباً من أجل الحرية وثوري.

والعقيد القذافي . . . فارس. . . ؟

وارغب دون الاعتداء على المحرمات الدينيـة ـ حتى تلك المحرّمـات المؤلفة من الشعر والقصص ـ طرح مثل هذه المقارنة.

لأنه من غير المنطقي ما يقوله ويكتبه البعض حتى الآن عن هذا الرجل موضع الخلاف.

وإن «الله سيد المعبد» ـ حسبما وصفته قبـل سنوات احـدى الكاتبـات الفرنسيات في كتابها ـ سوف لا يؤاخذنى عندما أقربه أنا من الأساطير المسيحية ـ الغربية.

إن الرجال الاتقياء على جبل (Montsalvat) لم يكونوا رهبان يقضوا يـومهم

في الصلوات فقط، بل كانوا جماعة من فرسان مسلحة كان هدفهم افناء البشر حيثما وجدوه.

وكانوا يطلقون على انفسهم «مناضلي الله» وكان مسموحاً لهم القتل في الصراع الثنائي لتنفيذ حكم الله في المذنب.

وكان موقف فرسان المعبد المسلحين في تعارض مع تعاليم الإنجيل «بعدم القتل» ومع السيد المسيح، الذين اسسوا جمعيتهم على دمه.

العقيد القذافي لا يستطيع حب اعدائه ولا يتراجع عن الانتقام في حالة الاعتداء على بلده، إن دينه يطلب منه الرحمة والشفقة، لكن لا يطلب منه اتخاذ موقف الخاضع والخانع اتجاه شخص أو أشخاص يهددونه وشعبه.

ولهذا فأن ما يقوله ويكتبه البعض غير صحيح، لأن شجاعة وعمل القائد الليبي نابعة من الإسلام كسلاح قوي يطالب الدفاع عن الوطن.

والقذافي كما يقول شخصياً، يساعد حركات التحرر التي تملك الحق الأخلاقي بتحقيق مطالبها، وهو يملك ترسانة أسلحة حديثة، بدونها لايمكن اليوم انتزاع الحرية.

إن صورة الفارس بخوذته الفضية ودرعه، وهو يدافع عن الكرامة أصبحت جزءاً من تاريخ القرون الوسطى.

أين هي الجماعات غير المسلحة ونحن على اعتاب السنة 2000، هذه الجماعة مكونة رمزياً من الشبان والشابات الذين يتظاهرون بشدة ضد إنتاج الأسلحة وضد خطر الذرّة، لكنهم يقفون برجل واحدة في «الخيال» وليس على أرض الواقع وينسون من كثرة مبدأيتهم الضرورة القصوى للأسلحة.

والعقيد القذافي يرغب أيضاً بأن يرجع هذا العالم المريض اخلاقياً مرة أخرى إلى الله، لكنه لا يصرف وقته في أشياء خيالية، هو يأخذ قضية المظلومين والمطاردين على أنها قضيته، بالرغم من أن مثل هذه المواقف تكلفه جهداً ومالاً أكثر من طاقته ويقابل بدون كلل مجموعات الصحفيين في كل العالم (حتى

الاذاعة المرئية) يحاول بتصريحاته تصحيح الصورة المشوهة التي تنشرها اجهزة الاعلام عنه.

لكنه يعلم أيضاً بأن هذا الامر ليس سهلاً، وليس من السهل كسر حاجز ضخم من الاتهامات والدعايات.

لكن.. من يستطيع مقابلة العقيد، يشعر في محادثة قصيرة تفوق إنسان واثق من مهمته وعارف بأن الحق إلى جانبه، وهو شخصية فريدة متعددة الجوانب: سياسي، ورب عائلة، محارب وشاعر، وثوري وخادم لله.

قال القذافي: «الثورة يجب أن تكون متدينة» ليس لأنه مثل روبسبير ـ ينظر إلى الإلحاد نظرة «ارستقراطية» بل من اعتقاده، بأنه بدون العلاقة مع الخالق تفقد الحياة قيمتها وبعد ذلك تفقد أية محاولة لتجديد المجتمع معناها.

عبر العصور

عبر العصور

أنا أحتقر التراب الذى خلقت منه... يمكن للمرء ملاحقته بوحشية وقتله.. هذا التراب لكن لا يستطيع لأحد أن يختطف منى الحياة المستقلة.. والتي أعطيت لي في القرون والسنوات.....

هذه الكلمات التي تحمل في طياتها الكبرياء تركها لنا سانت جوست.. رافقتنى في البلد التي عاش فيها هذا الرجل. اللقاء بواسطة الأفكار الثورية التي تبقي بعد الموت وتنتقل إلى شخص آخر مختار تشعل فيه نبضات جديدة.

يجب أن يكون مبشراً من نوع خاص، من بين العديدين ممن اعقبوا ثورة 1789م والذى لا يقوم فقط بإدارة وتنفيذ مثل هذا الإرث، وإنما يعرف كيف يُريد بقوته وشجاعته الخلاقة..

بعد قرن ونصف وفي مكان آخر في العالم ولد الخلف الأصيل «معمر القذافي» المفكر «والبناء» في الصحراء.

قرأ الكل من روسو وفولتير لكنه لا يعرف الكثير عن سانت جوست ربما يعرف اسمه فقط وبدون العلاقة الواعية بسلفه الثورى أصبح هو بعد ذلك مفخرته العظيمة.

فحص القذافي الأفكار من جديد، وجربها على شعبه وقاد ثورة 1789 من جديد التي لم تكتمل والتي خانها رجالها في ذلك الوقت، قاد الثورة من وجهة نظره المعاصرة لكن بأخلاص لتقاليدها الممثلة في «الحرية والمساواة والاخاء».

للأسف أن هذه المثاليات التي هي أساس كل القيم الأخلاقية لازالت تجد من يشكك بها هنا وهناك.

رسالة القذافي لم تسمع أو يسوء فهمها، وإذا كان كل المسؤولين في عالمنا على استعداد لاخذه وكتابه الأخضر على محمل الجد لكانوا قد عرفوا أن القذافي «المثير للمشاكل» يريد بأعماله الوصول إلى حقيقة جديدة على سطح الأرض.

تركت طرابلس والطائرة تحلق فوق الأرض الزراعية، وبعد برهة من الزمن ارتفعت حتى وصلت الغيوم التي منعت الرؤيا وكانت الطائرة تبتعد وتبتعد عن أرض الجماهيرية.

كان المكان بجانبى خالياً.. وهذا جيد حتى أستطيع الأختلاء إلى نفسي فقط، أتذكر هذا اللقاء والانطباعات التي حصلت عليها منه.

وفجأة عبرت أفكارى مسافة الزمن وقفزت 30 سنة إلى الخلف من أشعة أكتوبر الحارة في ليبيا إلى منطقة الشمال الفرنسي الباردة.

ثلاثون سنة.... فترة زمنية طويلة في عمر الإنسان.. لكنها لا تعني شيئاً

في البحث عن آثار «الثورة الأبدية» كان حدثاً ولكن ليس بمثل الحدث المهم الذى تركته خلفي مباشرة، لكن بنفس الأفكار.. مقابلة مع الخيال مات منذ فترة طويلة... لكن الا يقال أن المنسي فقط هو المتوفي حقيقة؟.

ليس أجمل مكان في المقاطعة لكن لها طابع خاص، خاصة في أواخر الخريف عندما تكون المراعي والمروج مغطاة بقطرات المطر الخفيف الذى لا يراه المرء ولا يشعر به.. قبل ثلاثين سنة كان مثل هذا اليوم. وكان هذا المكان يوحي وكأنه لم يتأثر بالتاريخ الحافل لفرنسا....

كان في ذلك الوقت شاباً يسير في الحارات مع رفاقه وهم يثيرون الصخب قاصدين قصراً خالياً لأحـد الشرفاء وكانوا يضربون الأغصان بعصا. . . تصرفات طفولية، لكن مواطني (المقاطعة) الذين لا يتعاطفون مع الشريف، وعرفوا أن مثل هذا التصرف هو رمز لانتهاء حكم الاقطاع. . ولم يخب ظنهم. . قريبـاً سوف لا يوجه غضب الشعب إلى الأشجار والأغصان البريئة.

بيت سانت جوست بيت أرضي ذو طابع ريفي كان خاليـاً ومنهاراً على قارعة الطريق.

وربما كان في الأيام الخوالي جميـلاً. . ولا أعرف فيمـا اذا زال ذلك موجوداً حتى اليوم. .

وعرفت في الفندق الـوحيد في هـذا المكان بـوجود احـدى القريبـات القديمات لسانت جوست من زيجة أخته الصغرى والتي لازالت حية تعيش في هذه المدينة ويبلغ عمرها أكثر من 80 سنة.

في البداية لم ترغب في التحدث الى، لكن بعد فترة قصيرة وبعد عدة أسئلة وجهتها لي وافقت. .

ــ ماذا تريدين؟.
ــ أريد التحدث معك عن سانت جوست «مدام».
ــ هل أنت معه أم ضده؟.
ــ (لو كانت ضده لوفرت الرحلة إلى هنا. .
ــ من أين قدمت؟.
ــ من فرانكفورت. .
ــ أنا لا أحب الالمان. .
ــ مدام. . أنا نمساوية. .
ــ أنا لا أحبهم أيضاً.

ويبدو بوضوح أن السيدة العجوز لازالت ترى صورة اعداء بلدها في عام 1793م. . وبعد فترة وافقت العجوز التحدث الى وسمحت لى بالدخول إلى بيتها.

وبعد تناول القهوة القوية المرة ـ وجب على طحن القهـوة بمطحنـة يد قديمة جداً تصلح أن تكون قطعة في متحف، بدأت المرأة تتحدث بصورة مؤثرة عن سانت جوست وكأنها كانت تعرفه في صباه.

وقالت بمرارة «هؤلاء الأوغاد قتلوه» ويعتقد المرء عندما يسمعها تتحدث عنه كأنها عاشت احداث إعدامه بواسطة المقصلة.

لا أعرف الفترة التي عاشتها هذه السيدة، لكن حتى اذا عاشت ووصلت إلى عمر والد القذافي فإنها يمكن ان تكون آخر قريب للثوري الفرنسي بقي على قيد الحياة. «هؤلاء الأوغاد» حتى وإن لم يقتلوه هؤلاء الذين دائماً وابداً يقفون حاسدين في ظل الشخصيات المهمة... مثل الفطر السام إلى جانب شجرة الصنوبر الأصلية التي تريد الحياة والشموخ.

أثناء السفر بالحافلة الفارغة تقريباً من الركاب والتي تسيـر في الشوارع المضيئة بشكل غير جيد لمدينة (Blerancourt) في طريقي إلى محطة القـطار، كان لدى الوقت للتفكير. إن بقاء سانت جوست على قيد الحياة مـع كل النتـائج السياسية والعسكرية، كان من المحتمل اعطاء فرنسا وجهاً آخر، ولربمـا كما يقول بعض المؤرخين لم يستطع ابداً في ظل حكم سانت جوست أن يصبح ضابط المدفعية الصغير «نابليون بونابرت» قيصراً لفرنسا.

في تلك الجلسة العاصفة للجمعية العامة بتاريخ 27 يوليو عام 1794م، والتي كانت تقرر وجود أو عدم وجود قيادي اليعاقبة البارزين، واستمرار الثورة بصورة عامة يقال أن احد النواب قـد همس إلى المتحدث بـاسم المعارضـة المعتدلة وقال له بأن عليه أن يهاجم في كلمته روبسبيـر فقط وعدم التعـرض لسانت جوست..

وإذا كانت هذه النصيحة حقيقية، إلا أنها لم يستمع إليها أحد، وقررت الجمعية العمومية بالإجماع رفع دعوى ضد روبسبير وكل اصدقائه المشهورين، خاصة «سانت جوست» وكان هذا يعني حسب قوانين حكم الارهاب تقديمهم سريعاً إلى محكمة الثورة، والتي كانت في غالب الأحيان ولأسباب شكلية التأكد

من شخصية المتهم والفعل الذى ارتكبه وكانت في 99 في المائة تصدر أحكامها بالإعدام في نفس اليوم.

هل كان بأمكان سانت جوست الذي كان يتمتع حتى في صفوف المعارضة بالاحترام والتقدير بل بأعجاب خفي.. انقاذ نفسه من الموت إذا سُمِحّ له بالتحدث في تلك الجلسة المثيرة؟.

لقد رمى المخطوط الذى كتبه بعناية على المنضدة والذى كان يحمل في طياته كلاماً متسامحاً وتحذيراً لعقل كل الوطنيين..

وبقى جالساً بقية الوقت بصمت فخور أثناء تلك الجلسة العاصفة بالأحداث.

وكان المؤرخون يسألون أنفسهم بأستمرار.. لماذا تصرف مثل ذلك التصرف، ولماذا جعل نفسه الضحية الصامتة للثورة والتي كان يكافح من أجلها بالكلام الكثير..

هل كانت قوة أعتقاده ستغير في الأحداث.. أو هل تدخلت قوى عليا لمنع ذلك..؟.

الثورة ليست انقلاباً.. بل تغيير كل ما هو قائم حتى الآن من حالات غير اجتماعية وظالمة وجعلها أكثر قرباً على الاقل من التصورات المثالية للبشر.

إن الحرية التي يوعد بها الشعب فقط لكسبه من أجل الخطط الانقلابية.. عبارة عن خيانة وتحريف لمعنى الحرية..

«الحرية المطلقة» غير موجودة، وهذه لها حدود، حدودها عدم اجتياز القوانين الأخلاقية.

ومعمر القذافي عرف الحرية الحقيقية، وهي تعتمد على الوحدة القائمة بين القانون والواجب.. وهي لا تفرق بل توحد البشر..

ثورته لم تكن عملاً «من فوق» ولا هي بثورة عمالية ولا انقلاب عسكري هدفه الحكم الدكتاتورى، لأن الضباط الأحرار بقيادة القذافي لم يستطيعوا

تحقيق ثورة الفاتح بدون مساندة الشعب الليبي لهم. . هذا الشعب الفقير غير الموافق على الظروف المحيطة به. . لكن شعب يائس كان بحاجة إلى منظمة مصممة. . قادرة على قيادته، ليس لتحطيم الشر فقط. . وإنما لبناء مستقبل أفضل له.

أعلن سانت جوست مرة «الحظ فكرة جديدة في اوروبا» عبارة تقال كثيراً لكنها لا تعني الكثير. . لأن الحظ سواء في اوروبا أو غيرها عبارة عن رغبات وآمال شخصية.

لكن اذا استخدمنا تعريف «الحظ» بشكل عام مثل تحقيق الذات في المجتمع الرفاهية والحياة الجيدة، نجد كل هذا في الكتاب الأخضر.

هل قام معمر القذافي بذلك بتكملة الثورة الفرنسية المتوقفة؟. .

كلا لأن الثورة أزلية مثل الولع الانساني في البحث أو العقل الباحث للعلم، الذى لا يكتمل أبدا.

الثورة هي القوة التي تتجدد دائماً، تعيش في النفس الساخن ودم الأجيال الماضية أو التي لم تولد بعد. .

لكن القذافي استطاع أخذ الإرث الفكري لسنة 1789م وطوره بواسطة أفكاره بحيث أصبحت أفكاره في مجال «الثورة الخالدة» أكبر من نموذج الدولة الليبية ولها طابع مستقبلى.

يجب على كل دولة اجتماعية مستقبلية الاعتماد على الأفكار التي وردت في الكتاب الأخضر. .

هذا الكتاب لاحدود زمنية له، ليس كتاباً سياسياً فقط. . لأن كاتبه يستقى أفكاره من الحاجات الأساسية و آمال البشرية التي لا تتغير رغم تغيير الظروف الجغرافية وأنظمة الدول.

معمر القذافي خالد مثله مثل «نظريته العالمية الثالثة» الم يذوب الماضي والمستقبل في وجوده الحالي والذى لا يمكن مقارنته مع السياسين ورجال الدول البارزين في عصرنا الحالي. .

اليس من الممكن أن يكون هو هانيبال بركاس قبل أكثر من الفى سنة ـ الذى هو شخصياً من قبيلة محاربة ضد روما من أجل قرطاجنة، مثله مثل الافريقي القذافي الذي يعمل على طرد الاسطول الامريكي من جنوب البحر الابيض المتوسط، في المجال العربي الحيوي؟.

ومرة أخرى قبل نصف ساعة من وصول الطائرة القادمة من طرابلس إلى فيينا تذكرت سيارة الركاب في ازقة (Blerancourt) الضيقة. . هذه القرية الواقعة في شمال فرنسا والتي غسل المطر جدران دورها القديمة والمدينة الواقعة على البحر بقباب جوامعها المضيئة هاتان المنطقتان والشخصيتان التاريخيتان اللتان عاشتا فيها ولازلت أفكر مثلما كنت قبل 30 سنة في شيخوخة الثوار الكبار الذين يعيشون في خطر.

العقيد القذافي وقد أصبح له 70 عاماً أشيب، قائد معتزل، أصبح له أخيرا متسع من الوقت لكتابة مذكراته صورة ودية كما يريد اعدائه رؤيته، حتى يستطيعوا نفى «المشاغب العالمي» من مسرح السياسة إلى نادى كبار السن.

لكنها صورة خاطئة، لأن القذافي حتى اذا عمر طويلاً ـ الله يحفظه. . فانه سوف لا يهدأ. . كثوري حقيقي ـ فقط «عندما ينام في القبر».

إن رسالته التاريخية متعددة الجوانب، بحيث أن اطول عمر للإنسان لا يكفي لتحقيقها. .

إن تحرير ليبيا والكتاب الأخضر هما جزء من واجبه. . وهناك قضايا لازالت قائمة بالنسبة للمسلمين المؤمنين والقومين العرب إلا وهي الوحدة العربية.

إن الخلافات بين الحكومات العربية تفسد خطط القذافي وتجد في نفس الوقت معارضة شديدة من قبل الدول الكبري التي لا تريد قيام دولة عربية متحدة مستقلة.

هل سيتيح الزمن لقائد الثورة متسعاً من الوقت لفك على الأقل هذه العقدة، التي يمكن أن تساعد على تخفيف حدة القضايا الخطيرة؟. . وهناك مثل يقول بأن كل إنسان يمكن تعويضه. . . هذا ينطبق على الإنسان العادى

وجهوده، لكن لا ينطبق على «الرجال التاريخيين» - «رجال القرن» والذين تعطيهم العناية الربانية مهمة خاصة. .

معمر القذافي أحد هؤلاء الرجال التاريخيين.. وإن الأمة العربية التى تدمى من جروح كثيرة وتعاني من مشاكل جسيمة تحتاج طويلاً إلى العقيد النزيه، الذى يعطى الأمل لاصدقائه ويشيع الخوف في صفوف اعدائه.

إحياء الآمل ونشر الخوف. . . هذا مصير رجل يتحمل عبىء الإنسانية. .

وكان الأشخاص الذين عاشوا فترة «سانت جوست» يقولون أيضاً إن الإنسان كان يجد تجاهه اما الحب أو الحقد، التقدير والاعجاب أو التقزز والاشمئزاز. . لكن أبداً عدم المبالاة.

ربما يبدو هذا إفراطاً بعض الشيء. . لكن الافراط لا يمكن الغائه بالكامل. . عندما يتعلق الأمر بإنسان غير عادى وظروف غير عادية.

إن الثورة نفسها اصبحت في احداث العقل والعاطفة. . .

وبعد أن تستقر الثورة ويولد في احشائها نظام دولة صلب فسوف يحل أولئك الذين يحسبون حساباتهم ببرود والتكنوقراط محل المتعصبين.

معمر القذافي سار في في كل مراحل الثورة ابتداء من قائد شاب «للضباط الأحرار» وأصبح رئيساً لجمهورية شعبية يعيش فيها 3 مليون نسمة. . لكنه لن يسمح ابداً أن تصبح بلده محكومة من البيروقراطية الصغيرة. .

وهو يبقى بالنسبة لبلده ليبيا والعالم قائداً للثورة وسوف يهز ساسة العالم رؤوسهم باستمرار بشأن العقيد ذو الطبيعة الحامية وغير المريح، والذى لا يتناسب وضعه مع الديبلوماسية.

هؤلاء لايريدون فهم هذا الرجل الذى لا ينقل المشاكل إلى منضدة المفاوضات، وإنما يتعامل معها بشكل تلقائى ومفاجىء عندما يعتقد بأن ذلك ضرورى.

المرء يحسده على سلطته في الوطن العربي، وهو يملك حساً سياسياً وقدرة على ضبط النفس في المواقف الصعبة ساعدته على الوصول إلى هذه المكانة.

هو انفرادى يعتمد على قوته الذاتية وطالعه الجيد الذى اعطاه إياه الله أحسن حلفائه في حياته.

«السلطة» كلمة لايسمعها العقيد بسرور خاصة عندما يتم الحديث عنه شخصياً...

قال مرة لإحدى الصحفيات:

«أنا لا أملك سلطة... شعب يحبنى فقط».. ولكنه لا يستطيع منع المؤرخين من وصفه بأنه قائد سياسي، كان يعرف سلطة الايحاء في شخصيته وفهم كيف يستخدمها بصورة صحيحة.. وربما سيصف البعض أيضاً القذافي الاشتراكي الكبير، الذى يروج لدولة الجماهير بانه شخصية ممتازة يَتَسِم «بفكر ارستقراطى» لكن الوقت لازال مبكراً للتحدث عن المؤرخين، طالما لازالت تخبرنا الصحف والاذاعة المرئية عن نشاطات العقيد القذافي.

قائد الثورة يقول في الغالب أقل مما يتوقعه الصحفيون وبالطبع يعرف أكثر منهم..

في بعض المرات يضحك ضحكة تدل على تفوقه عليهم، وبعد ذلك يبدو سارحاً في أمانى الماضي أو المستقبل.

كل أصدقائه الحقيقيون يتمنون لمعمر القذافي عمراً طويلاً، يشاهدونه على شاشة الاذاعة المرئية قبل دخول التاريخ.

خاتمة

خاتمة

بعد أن حاولت بهذه التأملات مقارنة شخصية ونظرية ثوريين ذو أهمية تاريخية، وصلت في النهاية إلى فكرة - وهي إجراء مقابلة مباشرة بين سانت جوست ومعمر القذافي كتأكيد على ارتباطهما وسعيهما من أجل الوصول إلى حل كامل لمشاكل الإنسانية، مقابلة حدثت في مخيلتي على هذه الشاكلة:

إن الروح القلقة «غير الهادئة» لسانت جوست التي انهت حياته مبكراً وبواسطة القوة، والذى كان أمله الأخير في الاجيال المقبلة، تطالب من الحياة الاخرى بمنفذ حقيقي للأفكار الثورية الخالصة.

إن روح سانت جوست التقت في تجوالها الذى دام مئات السنيين مع عقل أحد البشر، الذي لا زال يعيش في هذه الحياة والذي يوجه نظراته الداخلية اثناء تأملاته إلى السماء.

ويقوم الآن سانت جوست اليعقوبي الذى خاب أمله وفشل في ثورته بالتحدث مع هذا المفكر الثورى وصانع «دولة الجماهير» معمر القذافي.

ويرد قائد الثورة القذافي في حديث ادلى لى به مباشرة على التصريحات والأسئلة التي فكرت بها نيابة عن سانت جوست.

سانت جوست:

اتحدث إلى معمر القذافي في الدنيا الآخرة، حيث يندمج المكان والزمان

في بعضهما البعض وتلتقي أرواح الأحياء والموتى معاً. من هناك أعرف أفكار وأحلام القائد الليبي بشأن قيمة الحياة، علاقة الإنسان بالخالق، العلاقة بين الحرية وواجبات الفرد اتجاه البشر.

إن عيني الروحية ترى من خارج الحياة، الوضع القائم في عالم اليوم، حيث تسود القوة والبلبلة والإرباك والشقاء، وهذه العين ترى رغم ذلك هنا وهناك بعض الاشخاص المختارين الذين يرون من واجبهم على الأقل، خلق السلام والضمان الاجتماعي والحياة الكريمة لبعض القاطنيين على هذه الأرض غير الهادئة ـ إن هذا هو هدف معمر القذافي الرئيسي وكذلك كان هدفي قبل قرنيين من الزمان..

«الكتاب الأخضر» أصيل، وهو نتاج أفكار ذاتية، لكن الا تجد أنه يظهر وجود معالم مشتركة مع أفكارى أيضاً، التي حاولت بها، الشرح للشعب الفرنسي، في زماني الطريق للديمقراطية الحقيقية والتي هي شرط أساسي لسعادة الإنسان..

معمر القذافي:

بالتأكيد هناك تشابهة في الأخلاق والآراء اعتقد، بأن سانت جوست كان ضحية لأفكاره، التي جاءت مبكرة والتي لم تفهم في ذلك الوقت، هذا هو مصير الانبياء، ليس أولئك المرسلين من السماء، وإنما أيضاً أولئك الثوريين، لأنهم يرون أشياء لا يستطيع الآخرون وعيها.

ولقد اعلن سانت جوست «العصر الذهبي» ونحن نطلق عليه عصر تحرير الجماهير.

سانت جوست:

إن برنامجي الثورى الذى تركته للعالم الذى سيأتي بعدى، اعلنت فيه: إن الشعب الفرنسي يوافق على حرية الشعوب. وفي الحقيقة نشأت وتطورت منذ القرن التاسع عشر حركات تحرر: في البداية بأوروبا، ثم في الدول التي يطلق عليها اليوم «العالم الثالث» والتي كانت واقعة تحت ربقة الاستعمار.

إن العقيد القذافي هو الآخر لا يريد تطبيق نظريته «النظرية العالمية الثالثة» على الشعب الليبي فقط الذى حرره، وإنما على جزء كبير من العالم، ويقول القذافي شخصياً أنه يساند حركات الاستقلال لبعض الشعوب أو الاقليات المقهورة.

هذه المساعدة، سواء أكانت أخلاقية أو مادية تفهم غالباً بصورة خاطئة وتنتقد، وإن القوى العظمى التى تسيطر عليها العقلية الاستعمارية القديمة تتحدث عن «عمليات ارهابية».

نحن ثوار عام 1793، كان علينا أن نسمع مثل هذه الافتراءات من قبل قاهري الشعوب، أى من القوى الامبريالية التي لم ترغب في سماع كلمات المساواة والاخاء، حاولنا اعطاء الإنسان الملون في مستعمراتنا عبر البحار حق المواطنة (الحق المدني) لكن الزمن لم يكن ملائماً «لحرية العالم».

ــ هل العالم الآن ملائم لمثل هذه الأفكار؟. هل جاءت فرصة تطبيق ما ورد في الكتاب الأخضر؟..

معمر القذافي:

إن التقدم لم يتوقف، وعندما نادت الثورة الفرنسية لأول مرة بالمساواة، تأسست الجمهوريات في كل مكان، لقد حقق هذا المبدأ مع مرور الزمن نجاحات وإن أولئك الذين اعدموا «كمجرمين» أصبحوا بعدها أبطال وشهداء.

والآن تأتي الخطوة الثانية في عصر الجماهير، كحل نهائي للمبدأ الثورى يجب أن يكون كل شيء ملك الجماهير. السلطة ـ السلاح ـ الثروة، لازلنا الآن نعيش عهد استخدام السلطة والاستغلال، مثلما هو الحال في نظام الارستقراطيين.

لكن الجماهيرية، دولة الجماهير سوف تنتصر أيضاً في النهاية وهذه ستكون الصرخة الثانية ضد الامبريالية.

سانت جوست:

أنا انظر بقلق إلى الولايات المتحدة الامريكية حيث كانت في السابق

تمثل لي ولزملائي في الجمعية العمومية رمز الحرية والتقدم والديمقراطية.

بعد عشرات السنين من جهودنا الأولية لتحرير الشعوب، الغت امريكا بعد حرب أهلية دامية، العبودية بشكل نهائي.. أما اليوم فإن امريكا تريد أن تلعب في كل العالم دور الشرطي، وتبذر أموالاً طائلة على حساب الشعوب من أجل التسلح غير المعقول.

وهي تقف أمام تطور بعض شعوب العالم الثالث التي لا تريد الخضوع للسيطرة الامريكية.

ـ ما هو السبب الذى حدى بالمسئوليين الحاليين في امريكا إلى تغيير طريقة تفكيرهم؟.

معمر القذافي:

بشكل عام لكل دين رسوله الخاص.. مع مرور الزمن يأتي خلفاء لهم من غير الرسل.

إن امريكا جورج واشنطن وابراهام لينكولن غير امريكا رونالد ريجان، جورج واشنطن رئيساً لامريكا مثله مثل نيكسون وريجان، الأول كان أحد الرسل، نيكسون وريجان رسولان مزعومان فقط وحرفوا المهمة التى جاءوا من أجلها.

سانت جوست:

لم يكن في مقدور امريكا أن تصبح دولة عظمى كما هي عليه الآن بدون حلفائها، خاصة في اوربا الغربية، الذين يشكلون حلفاً ضد حلف ـ دول وارسو.

وهذا يعني وجود نظاميين سياسيين مختلفيين متضاديين بطبيعة الأمر، الدولتان العظيمتان في امكانهما جر البشر إلى حرب ذرية تمتد إلى كل انحاء العالم، وهما يوزعان قواتهما واسلحتهما على الدول الحليفة الصغيرة التي لا تستطيع صد ذلك اليس شعوب ما يسمي بالدول التابعة عبيداً جدد بشكل أو آخر؟..

معمر القذافي:

نعم، كل الدول الصغيرة والضعيفة عبارة عن عبيد جدد وهذه غير مستقلة، على عكس ما يقال..

ومن لا يرغب أن يكون عبداً، يجب أن يكون قوياً، بعض الدول الضعيفة التي لا تنتمي إلى أمة كبيرة مثل العرب، تضطر إلى التحالف مع احدى القوتيين العظمتين.

ليبيا دولة صغيرة، لكنها تملك الثروة والحظ بإنتمائها إلى أمة كبيرة.

سانت جوست:

كتبت في الماضى نتيجة المرارة التي عانيت منها، بأن الإنسان مضطر أن يرمي المرساة في المستقبل، هذا المستقبل الذى لم يلوث بآثام الحاضر، وكنت اتوق إلى القبر حتى لا اكون شاهداً ضعيفاً مجبراً على مشاهدة تلك الجرائم، وتقول احدى سير حياتي بأن صديقي روبسبير وأنا، كنا الوحيدين «التقيين» من بين الثوريين البارزيين عام 1793، أنا لا أعرف اذا كان ذلك صحيحاً؟ لكنى أعرف بأننا خدمنا الثورة بكل ما نملك.

لكننا اخطئنا ولقد اثبتت الاحداث اللآحقة ذلك، ليس في فرنسا فقط.

كنا نعتقد بأنه يكفى التخلص من ملك عاجز وحاشيته، لإسعاد الشعب، لكن العالم شاهد منذ ذلك الوقت تكوين جمهوريات بحكومات عاجزة، يوجد ما يسمي بالدول الاشتراكية، حيث الطبقة العاملة فيها غير سعيدة لأنها لا تستطيع تحقيق آملها في إقامة ديمقراطية عادلة، اما في الدول الرأسمالية فتزداد خيبة الأمل، حيث تتحكم في هذه الدول الانانية التي لا ضمير لها بالإضافة إلى زيادة الاجرام والامراض الاجتماعية.

ـ وما هى الفائدة التي يجنيها العاملون في الدول الغنية من المعاشات الجيدة التي يحصلون عليها؟.

في عهدى كان يوجد الطغاة والارستقراطيون الذين كانوا يملكون مساحات كبيرة من الأرض والثروة، بينما كان جزء كبير من الشعب يعاني من

الجوع، لكن هؤلاء المستغلون والاقطاعيون كانوا معروفين لـدينا، وكـان في مقدورنا القبض عليهم، وهذا ما فعلناه، اما اليوم فيجب أن لا يبحث عن اعداء الشعب في القصور فقط، لأنهم موجودين في كل مكان.

وهؤلاء يقـومـون بحـربهم الخبيثـة داخـل الاحـزاب البـرلمـانيـة وفي المجموعات الصناعية التي غالباً ما تساند سياسة ما أهدافها غير ديمقراطية.

يقول الكتاب الاخضـر «العالم يتقلب ولا يتغيـر»، وفي الحقيقة لازال هناك طغاة الأزمنة الماضية، تغيرت مسمياتهم فقط، هؤلاء يملكون الوسائـل التقنية التي في مقدورها افناء البشرية والحضارة، هذا التطور يفوق كل ما كنا نتوقعه في ذلك الوقت، عندما قمنا بتحطيم سجن الباستيل في 1789م.

بالطبع كانت الأمور بالنسبة لنا في ذلك الزمن بسيطة كان علينا فقط أن نفرق بين السيد والعبد، بين الفقير والغني، لم نكن نعرف الماركسية بأشكالها المتغيرة ولا الرأسمالية الصنـاعية المضـرة بالبيئـة، ولم تكن حتى الصهيونيـة موجودة.

أنا اسأل العقيد القذافي الآن الذى يعتبر «نقياً» وواحد من أكبـر ثوري القرن العشرين، لماذا هذا المستقبل الذى حلمت به لم يتحقق؟.

معمر القذافي:

الثورة يجب أن تستمر، يجب أن لا تتوقف، والا فسوف تزيف وبعدها تكون مجرد «نصف ثورة» تعود فيها من جديد سوء الأحوال الرجعية.

إن النظرية الثورية تتطلب دائماً أجيال ثورية جديدة بدون انقطاع لتحقيق هذا النظرية.

كما إن لكل دين كتـابه المقـدس، يجب أن يكون لكـل ثورة رسـولها الثوري، وإلاّ فهى معرضة للتوقف ويجب أن يظهر في كل جيل روبسبيـر أو سانت جوست، لكى يمكن استمرار تطوير الثورة الفرنسية وفلسفتها.

ولم يستطيع في عهد الجمهورية الفرنسية الخاصة لا جسكارديستان ولا شيراك ولا ميتران فعل ذلك.

سانت جوست:

وجب على أن اموت شاباً وأن روحى لا زالت تبحث باستمرار عن التنفيذ النهائي للمبادىء الثورية، التي حاربت وضحيت بحياتي من أجلها.

كنت مع هؤلاء الجنود الشبان «أطفال الوطن» كما يوصفوا في النشيد الوطني الفرنسي من أجل محاربة الامبريالية التي كانت تهدد فرنسا.

نعم لازال النشيد الوطنى الفرنسي ينشد، لكن فرنسا أصبحت حليفة الامبريالية في القرن العشرين.

هل هذا هو الجواب على رجائى اليائس، الذى وجهته إلى من جاءوا بعدى، عند صعودى إلى المقصلة، عندما كان فمى مقفلاً أمام صيحات الابتهاج والنصر لأعدائى؟.

ناديت.. ولآخر لحظة في حياتي الدنيا على الرجل الذى قد يتمكن من انقاذ الثورة واضفاء جديد لهذا العالم.

والآن وبعد مرور 200 سنة، اتوجه إلى معمر القذافي، اشاهده وهو محاط من قبل الشعوب الشقيقة التي تتحالف مع أعداء الأمة العربية بدلاً من ان تتوحد تحت علمه الأخضر.

هو يحارب نصف العالم كما وجب علي محاربة عصابة الخونة، أنا خسرت المعركة، لأنى تركت ذاتي تقع، متعباً وخائب الظن، كان هذا مصيرى كما هو مصير معمر القذافي في ضرورة استمرار كفاحه لا من أجل تحريك العالم فقط وإنما من أجل تغييره.

هل استلم أخي ورفيقي في عالم الثورة، الذى غالباً يخان ويزيف، ندائى إلى المستقبل؟.

معمر القذافي:

نريد اعادة احياء روح سانت جوست والالتهام منها من أجل تحقيق حلمه، ربما سوف نخسر المعركة كما خسرها هو، لكن الأمل لا يمكن ابداً

التغلب عليه، ونحن نحاول بعد مرور 200 سنة على هزيمة سانت جوست على تحويل الهزيمة إلى نصر.

تقول العقيدة الهندوسية:

«هناك وحدة الأرواح بعد موت أحد الناس مع الأرواح الأخرى وإذا كان المتوفى إنساناً سيئاً، فسوف تعيش روحه في جسد إنسان سيء آخر، اما إذا كان إنساناً كريماً، فإنه سوف تعود إليه الحياة، لكنه لا يعرف متى وأين».

ربما يكون هذا صحيحاً وربما عادت روح سانت جوست مرة أخرى.. ليس في إنسان فرنسي وإنما في إنسان عربى، ولأنه كان ثورياً «نقياً» فإنه يستطيع أن يعيش في روح أحد الثوريين الانقياء فقط.

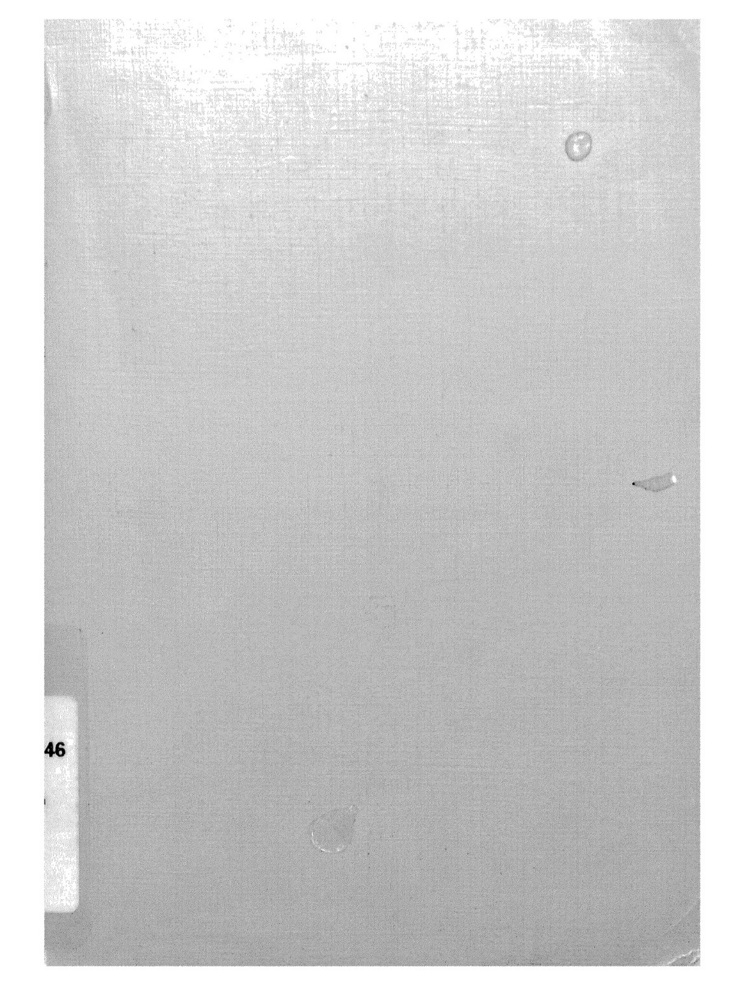
سانت جوست:

إلى أين تذهب روح الإنسان بعد وفاته، هذا هو السر الكبير لخالقنا، لا يحق لنا التدخل فيه.

إن المهمة الدنيوية لكلانا هي خدمة الشعوب في هذه الدنيا.

ونحن لا نعرف فيما إذا كانت روحى وروحه متآخيتان أو ربما روح واحدة، التحمت عبر 200 سنة في مهمة مشتركة؟ لكن كلمات معمر القذافي الجميلة تملؤني بالسعادة والأمل، لأنى أعرف الآن بأن الثورة المستمرة بأهدافها من أجل حرية وكرامة الإنسان مصرة على الاستمرار.

ولهذا اشكره على ذلك...


46